الفصل الخامس

مداخل الشيطان لإفساد القلوب

obeikandl.com

- أهمية القلب :

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود، الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء، فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله»[1] فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به، القابلة لما يأتيها من هدايته ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ؛ لأن كل راعٍ مسئول عن رعيته اهـ[2]. ولذا كان القلب هو محل الاختبار والابتلاء وعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأيُّ قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، قلب أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة مادامت السموات والأرض. والآخر أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه»[3].

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى:

فشبه عرض الفتن على القلوب شيئًا فشيئًا ، كعرض عيدان الحصير وهي طاقاتها شيئًا فشيئًا، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب الإسفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض

(١) البخاري (١/ ١٢٦ فتح الباري) ، مسلم (١٠ / ٢٨ بشرح النووي).

(٢) إغاثة اللهفان (١ / ٥).

(٣) رواه مسلم (٢/ ١٧١).

عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله «كالكوز مجخياً» أي مكبوبًا منكوسًا، فإذا اسود انتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران مترامیان به إلى الهلاك.

أحدهما : اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً.

الثاني : تحكيمه هواه على ما جاء به النبي ﷺ ، وانقياده للهوى واتباعه له. وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغي والضلال ، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل ، فالأولى توجب فساد القصد والإرادة، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد ا هـ[1].

ولذلك يجب على المسلم أن يراقب قلبه ويتعرف أحواله ويتخوله بالموعظة بين الحين والآخر، وليعلم أنه بصلاحه تكون السعادة الأبدية وبفساده يكون الشقاء والبلاء والخسران المبين.

واعلم أنه كلما ازداد إيمان القلب وقوي يقينه زاد نوره الذي يميز به بين الحق والباطل والهدى والضلال، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأي المادتين غلب على الآخرى غلب عليه»[2].

---

(١) إغاثة اللهفان (١ / ١٢).

(٢) رواه أحمد والطبراني في الصغير.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى :

فقوله «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله ورسوله فقد تجرد وسلم مما سوى الحق و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي بحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار «بالقلب الأغلف» إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان كما قال تعالى حاكيًا عن اليهود: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾[١] وهو جمع أغلف وهو الداخل في غلافه ، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله عز وجل على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله.

فهي أكنة على القلوب ، ووقر في الأسماع ، وعمًى في الأبصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا . وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾[٢] فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولَّى أصحابها على أدبارهم نفوراً.

وأشار بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق كما قال تعالى: ﴿**فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا**﴾[٣] أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة، وهو شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه والحق باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب «الذي له مادتان» إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان ولم يظهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر، والحكم للغالب وإليه يرجع ا. هـ[٤].

---

(١) سورة البقرة / ٨٨.

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة النساء الآية ٨٨.

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٢).

ومن هنا يتبين لنا أن مدار الأعمال على القلب ، فهو القائد والجوارح جنوده يوجهها حيث أراد.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى : ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايد والحبائل، فإن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق، فلا نجاة من مصايده ومكايده إلا بدوام الاستعانة بالله تعالى ، والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذل العبودية الذي هو أولى ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1] فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء ﴿إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2]. اهـ[3].

ونقاء القلب وإخلاصه يرفع صاحبه درجات ، فقد روى ابن ماجه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : يا رسول الله : مَنْ خير الناس؟ قال: «كل مؤمن مخموم القلب». قالوا وما مخموم القلب؟ قال : «هو التقي النقي الذي لا غش فيه ولا بغي ولا غدر ولا غل ولا حسد»[4].

كيفية الوسوسة :

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى : الوسواس (فعلال) من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه . فالوسواس: الإلقاء الخفي في

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٥.

(٢) الحجر الآية ٤٠.

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٦).

(٤) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٩)، وقال العراقي في تخريج الإحياء(١٣٦٤): إسناده صحيح

النفس إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد. ا هـ[١].

وقال أيضًا - رحمه الله في الوسوسة : هي مبدأ الإرادة فإن القلب يكون فارغًا من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله ، فيصور لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة ، ويزينها له بحسنها له ويخيلها في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة. ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسي علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث جنوده في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مددًا ولهم عونًا، فإن فتروا حركهم، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[٢] أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا ، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة.

وقد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم، وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم آدم فلا اعتز بتلك النخوة ولا فاز برضاه أن يصير قوّادًا لكل من عصى الله كما قال بعضهم:

عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي تِيهِهِ ... وَقُبحِ مَا أَظْهَرَ مِنْ نَخْوَتِه
تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ ... وَصَارَ قَوَّادًا لِذرِّيَّتِه

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة.

كيف يدخل الشيطان على الإنسان؟

قال ابن الجوزي - رحمه الله تعالى : وإنما يدخل على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم ، وجهلهم وعلمهم.

---

(١) التفسير القيم ٦٠٠.

(٢) سورة مريم الآية ٨٣.

واعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم - أي نوافذ - وساكنه العقل والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبيه ربض فيه الهوى والشياطين ، تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وُكِّلَ بحفظه وجميع الثلم وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة ، فإن العدو لا يفتر.

قال رجل للحسن البصري : أينام إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة.

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمر به فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة. وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج وربما دخل فعاث - أي أفسد - وربما أقام لغفلة الحارس، وربما كدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة، فيمر الشيطان ولا يدري به، وربما جرح الحارس لغفلته وأسر واستخدم، وأقام يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه في الشر.

قال بعض السلف : رأيت الشيطان فقال لي : كنت ألقى الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم. وربما هجم الشيطان على الذكي الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر إليها فيستأثره.

وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى: الجهل ، وأوسطه في القوة : الهوى، وأضعفه الغفلة ، وما دام درع الإيمان على المؤمن فإن نبل العدو لا يقع في مقتل ا هـ[1].

ثم ساق بسنده عن الأعمش قال: حدثنا رجل كان يكلم الجن قالوا: ليس علينا أشد ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبًا ا هـ.

واعلم أخي المسلم أن الشيطان لا يدخل إلا على ذي القلب الخالي من الذكر والتقوى والإخلاص واليقين فيلقي وساوسه فتجد المحل خاليًا فتتمكن منه وتستقر فيه

(١) تلبيس إبليس ٣٨.

كما قيل:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

وأما إذا كان القلب عامرًا بالإيمان مسربلاً بالتقوى، محصنًا بالذكر فلا يكون للشيطان عليه سلطان ولا إليه سبيل.

والطامة الكبرى فيما إذا كان القلب محشواً بالهوى والشهوة فهما قوت الشيطان فلا يمكن دفعه وهذا كمثل كلب جائع مر برجل بين يديه لحم، فكلما زجره لم ينته فإذا رفع اللحم من بين يديه يئس الكلب وانصرف، كذلك صاحب القلب المليء بالشهوات فلا بد أن يطهره أولاً منها ثم يعمره بالتقوى وفي هذه الحالة عندما يقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» انصرف عنه الشيطان.

ومن فهم هذا عرف سبب قلة جدوى الاستعاذة عند كثير من الخلق فليست الاستعاذة مانعة للشيطان إلا إذا كان قلب المستعيذ خاليًا من قوت الشيطان وعامرًا بالتقوى والإيمان ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ**﴾[1] فهذه الآية خاصة بالمتقين دون غيرهم.

- مراتب الإغواء:

الشيطان يتعقب الإنسان ويتتبعه ولا يبرد أنينه إلا إذا أغواه وأفسده وضمه إلى حزبه الخاسرين، وقد جمع ابن القيم رحمه الله تعالى مراتب إغواء الشيطان للإنسان فقال:

- المرتبة الأولى:

الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيَّره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه.

- المرتبة الثانية:

وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين،

---

(١) سورة الأعراف الآية ٢٠١.

هو ضرر متعدٍّ، وهي ذنب لا يتاب منه، وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاءوا به. وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها بقي أيضًا نائبه، وداعيًا من دعاته، فإذا أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى:

- المرتبة الثالثة:

وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها ولا سيما إذا كان عالمًا متبوعًا فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا - بزعمه - إلى الله تعالى وهو نائب إبليس ولا يشعر ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**﴾[1] هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها، لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه.

كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع بعلمه. وذنوب هذا لو بلغت عنان السماء أهون عند الله لأنه إذا تاب قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات. وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين، وتتبع لعوراتهم، وقصد لفضيحتهم.

والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائن الصدور، ودسائس النفوس. فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

- المرتبة الرابعة:

وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها. قلت: روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا ببطن واد فجاء ذا بعود وذا بعود حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»[2]. قال الحافظ: سنده حسن.

---

(١) سورة النور الآية ١٩.

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٢٩).

وروى الدارميُّ وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»[١].

وروي عن ابن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري قال: «إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المحقرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فيكون منها مشفقًا حتى يلقى الله آمنا»[٢].

قال ابن القيم : فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

- المرتبة الخامسة :

وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوات الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها (قلت وهذه المباحات مثل: كثرة النوم، والطعام، والشراب، واللباس، والسهر فيما لا يفيد) . قال فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى:

- المرتبة السادسة :

وهو أن يشغله بالعمل المفضول عن الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه. وقل من ينتبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بالخير، ويرى أن هذا خير، فيقول هذا الداعي من الله ، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأفضل.

---

(١) رواه الدارمي (٢/ ٣٠٣)، ابن ماجه (٢ / ١٤١٧) وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٥١٣).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٣٠).

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله عز وجل يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله تعالى وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين - خاصتهم وعامتهم - ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر ذلك بقلوبهم. والله يمن بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه، يسلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتحذير منه وقصد إخماده وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يني اهـ[(١)]..

وهذا واضح في مجتمعنا، ، فما من عبد التزم بدينه واستمسك بهدي نبيه وسنته وسار على نهجه إلا وجد الصدود والعناد والسخرية والاستهزاء من الأقارب والأباعد، والأصدقاء والأعداء، فليس له ملجأ إلا إلى الله. وهذا شاب جرت له هذه المحنة فانبرى يقول:

عَبْدٌ سَرَى فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاء ... هَرَبًا بِتَقْوَاهُ مِنَ الْفَحْشَاء
هَرَبًا من الفتنِ التي حَاطَتْ بِه ... مِنْ فِتْنَةِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاء
عَبْدٌ فتيٌّ فِي مُسْتَهَلِّ شَبَابِه ... عَرَفَ الْهُدَى وَطَرِيقَهُ بِصَفَاء
قَرَأَ القُرْآنَ تَفَهُّمًا وَتَدَبُّرًا ... وَكَذَا اهْتَدَى لِلسُّنَّةِ الغَرَّاء
وَرَأَى حَيَاةَ الصَّالِحِينَ سَعِيدَةً ... بالخَيرِ في الإصباحِ والإِمْسَاء
فَتَشَوَّقَتْ نَحْوَ السَّعَادَةِ نَفْسُهُ ... وَغَدَا يُهَدْهِدُ شَوْقَهُ بِخَفَاء
حَتَّى إِذَا التَزَمَ الْهُدَى بِعَزِيمَةٍ ... لله خَالِصَةً مِنَ الأَهْوَاء
نَادَتْ بِهِ فِتَنُ الضَّلالةِ جَهْرَةً ... وَدَعَتْهُ بِالتَّزْيِينِ والإِغْرَاء

---

(١) التفسير القيم (٦١٤).

وَتَزَيَّنَتْ دُنْيَاهُ فِي أَثْوَابِهَا ... بِمَبَاسِمٍ وَنَوَاظِرٍ كَحْلاء
وَغَدَتْ تَغُرُّ النَّاسَ فِي إِغْوَائِهَا ... حَتَّى أَضَلَّتْ أَكْثَرَ الدَّهْمَاء
وَنَشَا بِمُجْتَمَعٍ بِهِ اخْتَلَطَ الهُدَى ... بِقُوَى الرَّدَى وَالنُّورُ بِالظَّلْمَاء
وَالنَّاسُ تَأْخُذُ مِنْهُ ما يُرضِي الهَوَى ... فَإِذَا تَعَارَضَ فَهْوَ فِي إِقْصَاء
إِنْ جِئْتَ بِالحَقِّ الصَّرِيحِ تُقِيمُهُ ... وَصَدَعْتَ فِيهِ بِسُنَّةٍ بَيْضَاء
لَمْ يَعْرِفُوهَا قَبْلَ ذَا مِنْ جَهْلِهِم ... أَوْ لَمْ تَرِدْ بِوَصِيَّةِ الآبَاء
قَامَتْ قِيَامَتُهُم وَرُوِّعَ جَمْعُهُم ... وَرَأَوْكَ مُبْتَدِعًا وَذَا إِغْوَاء
أَتُرِيدُ تَبْدِيلا لِدِينِ شُيُوخِنَا ... وَطَرِيقَةَ العُظَمَاءِ وَالوُجَهَاءِ؟
وَمَتَى عَرَفْتَ هُدَى النَّبِي وَدِينَهُ؟ ... بِالأَمْسِ كُنْتَ فَتًى مَعَ الجُهَلاءِ!
فَإِذَا أَقَمْتَ عَلَيْهِمُ حُجَجَ الهُدَى ... وَدَمَغْتَ بَاطِلَهُم بِدُونِ خَفَاء
قَالُوا هَذَاكَ مُنَفِّرٌ وَمُشَدِّدٌ ... وَإِذَا بِهِ اسْتَمْسَكْتَ أَنْتَ مُرَائِي!
لما أَتَاهُم بِالهُدَى هَذَا الفَتَى ... نَفَرُوا نُفُورَ الحُمُرِ وَالحَمْقَاء
وَاسْتَهْزَءُوا بِسُلُوكِهِ وَبِدِينِهِ ... وَعَنِ الهُدَى فَتَنُوهُ بِالإِيذَاء
وَإِنْ رَأَوْهُ يَلِينُ أَوْ طَمِعُوا بِأَنْ ... يُصْغِي لَهُم فَتَنُوهُ بِالإِغْرَاء
فِتَنٌ عَلَى دَرْبِ الهُدَى تُغْرِي الفَتَى ... وَآخِرُهُنَّ لِفِتْنَةِ السَّرَّاء
فَتَضَايَقَتْ أَخْلاقُهُ مِنْ حَالِهِ ... كَتَضَايُقِ الإِيمَانِ فِي الأَهْوَاء
وَجَدَ الدِّرَاسَةَ حَيْثُ كَانَ قِوَامُهَا ... أَخْلاطَ سُوءٍ شَاعَ فِي الجُلَسَاء
بَذَلَ النَّصِيحَةَ جَهْرَةً وَبِخُفْيَةٍ ... لِذَوِيهِ وَالأَصْحَابِ وَالزُّمَلاء
لا سِيَّمَا فِي أَهْلِهِ وَقَرَابَةٍ ... جَهِلُوا فَنَادَاهُم بِلُطْفِ نِدَاء
لَكِنَّهُم لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الهُدَى ... لَمَّا أَتَى مِنْ أَصْغَرِ الأَبْنَاء
بَلْ حَارَبُوهُ بِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ ... وَرَمَوْهُ بِالتَّعْقِيدِ وَالإِعْيَاء

obeikandi.com

لَمْ يَنْقِمُوا مِنْهُ سِوى أَنْ قَالَهَا ... اللهُ رَبِّي جَهْرَتِي وَخَفَائِي
وأتاهُ ضِيقًا بَعْدَ ضِيقٍ فالتجَا ... يَشْكُو إِلَى المولَى عَظِيمَ بَلاَءِ
وَيَقُولُ يا رَبَّاهُ عَبْدُكَ مُؤْمِنٌ ... إِنِي لأَخْشَى فِتْنَةَ الدَّهْمَاءِ
إِنِّي أَخَافُ مِنَ الضَّلالِ وَإِنَّنِي ... أَدْعُوكَ فَاقْبَلْنِي وَضَعْفَ دُعَائِي
أَنْقَذْ غَرِيقًا فِي الدُّجَى قَدْ رَاعَهُ ... مَوْجٌ يَهِيجُ وَوَحْشَةُ الظَّلْمَاءِ
المَوْجُ عَاصِفَةٌ، الضَّلالُ ظَلاَمُهُ ... إِنَّ الهُدَى مُتَلَبِّسٌ بِخَفَاءِ
كَيْفَ المقامُ وَكَيْفَ لِي أَنْ أَكْتُمَ ... الحقَّ الصَّرِيحَ لِرَهْبَةٍ وَرَجَاءِ
وَبَيَانُهُ لابدَّ فِيهِ مِنَ السِّلاحِ ... العِلْمُ أَفْلَقَ حُجَّةَ الجُهَلاءِ
أَعْنِي بذلكَ أَولِي الحديثِ وحزبَهُ ... الْعَامِلِينَ بِهَدْيِهِ الْوَضَّاءِ
هَذِي حِكَايَةُ حَالِ أَصْحَابِ الْهُدى فِي ثَمْرَةِ الإِغْرَاءِ وَالإِغْوَاءِ
يَا ربِّ فَاحْفَظْهُم وَثَبِّتْهُم عَلَى ... نَصْرِ الْهُدَى والسُّنَّةِ الْبَيْضَاءِ
وَارْزُقْهُمُ إِحْيَاءَهَا بِبَصِيرَةٍ ... وَارْزُقْهُمُ صَبْرًا عَلَى الإِحْيَاءِ
وَاجْعَلْ لَنَا فِيهَا نَصِيبًا وَافِرًا ... يَا رَبِّ وَانْصُرْنَا عَلَى الأَعْدَاءِ

فهذا حال الملتزمين بالإسلام ظاهرًا وباطنًا وهم الغرباء الذين بشرهم النبي ﷺ بقوله : «طوبى للغرباء»[1].

- طرق الشيطان في إضلال الإنسان :

لو أن إنسانًا مارس عملاً معينًا خمسين عامًا - مثلاً - لأصبح فيه محنكًا بمداخله وطرقه وخفاياه.

فهذا إبليس -عليه لعنة الله- من يوم طَرْدِهِ من الجنة حتَّى الآن ليس له عمل إلا إضلال الخلق وإغواؤهم، فهذه المدة الطويلة وتلك الخبرة المديدة جعلته يخترع أفانين

(١) رواه مسلم (٢/ ١٧٦ بشرح النووي).

في الإغواء والإضلال فمن هذه الحيل:

١ - تزيين الباطل:

إن الباطل له صورة قبيحة وسمة وقحة ولذلك يعمد الشيطان إلى هذا الباطل فيغطيه بغطاء جميل ويلبسه رداءً حسنًا ثم يزينه ويحسنه ثم يبدأ في إغواء العبد به وما علمنا ذلك إلا من قول الشيطان نفسه حين قال لربه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]. فالتزيين أولاً ثم الإغواء.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى: ومن مكايده أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكبده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء وينفر من الفعل الذي هو أنفع الأشياء، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله كم فتن بهذا السحر من إنسان! وكم حال بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان! وكم جلى الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة! وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين! وكم رَوَّجَ من الزغل على العارفين، فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة، والآراء المتشعبة، وسلك بهم سبل الضلال كل مسلك، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمهات ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم والعمل بقوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفسَكُمْ﴾[٢] والإعراض عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منه، والنفاق والادهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس ا هـ[٣].

---

(١) سورة الحِجْر الآية ٣٩.

(٢) سورة المائدة الآية ١٠٥

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١١٠)

٢ - تسمية المعاصي بأسماء محببة :

ومن صور هذا التزيين تسمية الفواحش والمعاصي بأسماء محببة إلى النفوس لكي يخفى خبثها وفحشها، فهو الذي سمى الشجرة بشجرة الخلد ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لا يَبْلَى**﴾[١] يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى- : «وقد ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر بأم الأفراح. . . . »[٢].

فهم الذين يسمون الربا بالفائدة، ويسمون التبرج الفاضح بحرية المرأة، ويسمون الاختلاط المستهتر بالتقدم والتمدن، ويسمون المغنية الفاسقة والفجور والعصيان تحت اسم الفن ، كل هذا ليجذبوا قلوب الناس إلى فحشهم وخبثهم.

٣ - تسمية الطاعات بأسماء منفرة :

إن الحق تكون عليه مسحة من نور ، وتعلوه إشراقة وضاءة فلو ظل كما هو دون تشويه أو تقبيح لتهافتت إليه النفوس، وصغت إليه الأسماع وركنت إليه القلوب؛ ولذا كان دور الشيطان الأول هو تقبيح صورة الحق وتشويهها وتسميته بأسماء منفرة، فهو الذي أوحى إلى أوليائه من الكفار من قوم عاد أن يقولوا لنبيهم هود عليه السلام: ﴿**إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ**﴾[٣].

وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار مدين أن يقولوا للناس : ﴿**لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ**﴾[٤] وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قوم فرعون بتسمية موسى وهارون ساحرين ﴿**قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى**﴾[٥] وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش

---

(١) سورة طه الآية ١٢٠

(٢) إغاثة اللهفان ١ / ١١٢

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٦.

(٤) سورة الأعراف الآية ٩٠.

(٥) سورة طه الآية ٦٣.

بتسمية رسول الله ﷺ بالساحر والكاهن والشاعر والمسحور والمجنون وغيرها من الأسماء المنفرة ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾(١) ولكن الله تبارك وتعالى نفى كُلَّ ما نسب إلى رسوله ﷺ من زور وبهتان فقال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ﴾(٢) وقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَّا تُؤْمِنُونَ. وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ. تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٣).

وهو الذي أوحى إلى أوليائه من كفار قريش بتسمية أتباع النبي ﷺ بالصابئين.

وما زال الشيطان يسير في نفس الخطة وبتلك الوسائل حتى زماننا هذا.

فهو الذي أوحى إلى أوليائه بتسمية المتمسكين بهدي النبي ﷺ والمستنين بسنته ظاهرًا وباطنًا بالمتطرفين والمتعصبين.

كما يسمون البعد عن المعاصي ودور الفسق والفجور انغلاقًا ويسمون الحجاب الشرعي خيمة، ويسمون المرأة التي التزمت بأمر ربها وجلست في بيتها رجعية، ومتخلفة، كل ذلك من وحي الشيطان إليهم.

ولكن أنادي أهل الحق: لا تجعلوا هذا يَثْنِي من عزمكم فتتراجعوا عن سنة نبيكم، بل ازدادوا تمسكًا وقولوا:

لا تَلْمِزُونَا يَا خَفَافِيشَ الدُّجَى ... بِتَطَرُّفٍ وَتَسَرُّعٍ وَتَشَدُّدِ

لا تَقْذِفُونَا بِالشُّذُوذِ فَإِنَّنَا ... سِرْنَا عَلَى نَهْجِ الخَلِيلِ مُحَمَّدِ

وَلِكُلِّ قَوْلٍ نَسْتَدِلُ بِآيَةٍ ... أَوْ بِالْحَدِيثِ المُسْتَقِيمِ المُسْنَدِ

وَالنَّسْخَ نَعْرِفُ وَالْعُمُومَ وَإِنَّنَا ... مُتَفَطِّنُونَ لِمُطْلَقٍ وَمُقَيَّدِ

---

(١) سورة الفرقان الآية ٨.

(٢) سورة الطور الآية ٢٩.

(٣) الحاقة الآية ٤١ : ٤٣.

وَنُصُوصُ وَحْيِ اللهِ نُتْقِنُ فَهْمَهَا ... لا تَحْسَبُونَ الْفَهْمَ كَالرَّأْيِ الرَّدِي
وَإِذَا تَعَارَضَتِ النُّصُوصُ فَإِنَّنَا ... بِأُصُولِ سَادَتِنَا الأَئِمَّةِ نَهْتَدِي

٤ - دخوله إلى النفس من أحب الأبواب إليها :

إن عدو الله لا يدخل على النفس إلا من الباب الذي تحبه وتهواه ؛ لأنه بذلك يحقق مرادها وهواها فيجد الشيطان من النفس عونًا ومن الهوى مددًا.

يقول ابن القيم : «وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضًا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه ، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مصدود» ا هـ[1].

٥ - التدرج في الإضلال :

إن الشيطان لا يأتي الإنسان ويقول له: افعل هذه المعصية أو ارتكب هذه الفاحشة . وإنما يقربه منها خطوة خطوة. وقديمًا قالوا: «نظرة فابتسامة فكلام فموعد فلقاء». وهنا يقع المحظور ، فلذلك حذرنا الله تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان فقال : **﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾**[2].

فهذا نداء شفقة ورحمة من الرءوف الرحيم إلى عباده محذرًا لهم من اتباع طرق الشيطان ومسالكه. ومنبهًا على أنه يجب على العبد أن يغلق باب الطريق من أوله كي لا يندرج معه في الغواية والضلال.

ومن فهم مقاصد الشريعة تبين له ذلك بوضوح فما قاعدة «سد الذرائع» إلا من هذا

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١١٢).

(٢) سورة النور الآية ٢١.

القبيل، وكذا تحريم الخلوة بالأجنبية وغض البصر فكن متيقظًا أخي المسلم لخطط الشيطان وحبائله.

ويروى عن وهب بن منبه قال : كان عابد في بني إسرائيل وكان أعبد أهل زمانه، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرًا ليس لهم أخت غيرها فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ولا من يأمنون عليها، ولا عند من يضعونها.

قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بني إسرائيل وكان ثقة في أنفسهم، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن أختهم قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال : أنزلوها في بيت حيال صومعتي، قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت في جوار ذلك العابد زمانًا ينزل إليها بالطعام من صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من طعام.

قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها، فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمْها قال : فلبث على هذه الحالة زمانًا.

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه وقال : لو كنت تمشي إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك ، قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها ، فلبث على ذلك زمانًا.

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، قال : فلم يزل به حتى حدثها زمانًا يطلع إليها من فوق صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله

وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها فلبثا زمانًا يتحدثان.

ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبًا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل حتى فعل ، قال فلبثا زمانًا.

ثم جاءه إبليس - عليه لعنة الله - فرغبه في الخير وفيما له عند الله سبحانه وتعالى من حسن الثواب فيما يصنع بها وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل ، فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبث ذلك حينًا.

ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت معها البيت فتحدثها ولم تتركْها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته.

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبلها فولدت له غلامًا.

فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن آن تفتضح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل، فقال أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ؟ قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها وأطبق عليها صخرة عظيمة وسوى عليها وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما يشاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاءوا فسألوا عنها، فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها وقال: كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أيامًا ثم انصرفوا إلى أهاليهم.

فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل

مسافر، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أخته فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان، وقال لم يصدقكم أمر أختكم إنه أحبل أختكم وولدت له غلامًا فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم وألقاها في حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله، فانطلقوا فادخلوا البيت فإنكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعًا.

وأتى الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك ، وأتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم. فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجبًا فأخبر بعضهم بعضًا بما رأى.

فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم ، قال أصغرهم: والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فأنظر فيه. فانطلقوا جميعًا حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين في الحفيرة كما قيل لهم ، فسألوا عنها العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما.

فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أطعتني اليوم وكفرت بالله الذي خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه ، قال : فكفر العابد بالله، فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه[1].

قال المفسرون : في هذا وأمثاله نزلت : ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾[2].

---

(١) تلبيس إبليس ٢٦

(٢) سورة الحشر الآيتان ١٦ ، ١٧

هكذا خطط له الشيطان ودبر، حتى نال منه ما يريد وما وقع هذا العابد فيما وقع فيه إلا من جهله بمداخل الشيطان وخطواته، فلو أنه امتنع عليه من أول خطوة لرده خاسئًا.

روى ابن الجوزي بسنده إلى وهب بن منبه قال : كان راهب في صومعته في زمن المسيح عليه السلام، فأراده إبليس فلم يقدر عليه، فأتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه ، فأتاه متشبهًا بالمسيح ، فناداه : أيها الراهب أشرف عليَّ أكلمك ، قال : انطلق لشأنك فلست أرد ما مضى من عمري.

فقال أشرف عليَّ فأنا المسيح . فقال : إن كنت المسيح فما لي إليك حاجة ، ألست قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة ، انطلق لشأنك فلا حاجة لي منك ، فانطلق اللعين وتركه[1].

انظر إلى كلا العابدين : الأول أضله الشيطان بسبب جهله والثاني عصم من الشيطان بسبب علمه؛ ولذا قال النبي ﷺ : «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي» رواه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح.

٦ - الصد عن الحق :

أخذ الشيطان على نفسه عهدًا ليضلن بني آدم وليغوينهم أجمعين إلا من اعتصم منهم بالله تعالى وتحصن بحصن الإخلاص ، فذلك لا سبيل للشيطان إليه.

قال تعالى : ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[2].

قال القرطبي - رحمه الله تعالى - : ﴿**لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المُسْتَقِيمَ**﴾ أي: بالصد عنه وتزيين الباطل حتى يهلكوا كما هلك.

قال : والصراط المستقيم هو الطريق إلى الجنة ا هـ[3].

---

(١) تلبيس إبليس ٢٩

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٦ ، ١٧.

(٣) تفسير القرطبي (٧ / ١٧٥).

قال الحكم بن عتيبة : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني حسناتهم ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم.

قال النحال : وهذا قول حسن وشرحه : أن معنى ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم حتى يكذبوا بما فيها من الآيات وأخبار الأمم السالفة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ من آخرتهم حتى يكذبوا بها ، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ في حسناتهم وأمور دينهم ويدل على هذا قوله : ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم ، أي يتبعون الشهوات؛ لأنه يزينها لهم ، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي موحدين طائعين مظهرين الشكر. ا . هـ[١].

وصح عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ولم يقل من فوقهم؛ لأنه علم أن الله من فوقهم قال قتادة : أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله[٢].

قال شقيق : «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد : من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[٣] وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه فأقرأ : ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[٤]، ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء فأقرأ : ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٥] ، ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[٦][٧].

---

(١) تفسير القرطبي (٧/ ١٧٦)

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٣)

(٣) سورة طه . آية : ٨٢.

(٤) سورة هود . آية : ٦.

(٥) سورة الأعراف : آية : ١٢٨.

(٦) سورة سبأ : آية : ٥٤.

(٧) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٤).

قال ابن القيم رحمه الله : السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير فإنه تارة يأخذ عن جهة يمينه وتارة عن شماله، وتارة أمامه ، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصداً له ، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه ، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملاً له وخادمًا ومعينًا وممنيًا ، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه هناك ا هـ[١].

روى الإمام أحمد والنسائي من حديث سبرة بن أبي الفاكه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كمثل الغرس في الطول فعصاه فهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد وهو جهد - أي تلف - النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ، فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقّاً على الله أن يدخل الجنة، وإن غرق كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابته كان حقّاً على الله أن يدخله الجنة»[٢].

٧ - إظهار النصح للإنسان :

إن الشيطان لا يأتي الإنسان ويقول له أفعل كذا من المعاصي لكي تنال العذاب الأليم، وإنما يأتيه في صورة الناصح الأمين ، وبهذه الحيلة تمكن من إغواء أبوينا وإخراجهما من الجنة ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[٣] ولذلك حذرنا الله من هذه الفتنة وتلك الحيلة قائلا : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾[٤].

كما روي عن بعض السلف أنه قال : إذا جاءك الشيطان في الصلاة فقال إنك ترائي

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٤).

(٢) رواه النسائي (٥/ ٢١)، وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح (١٣٨٩).

(٣) سورة الأعراف الآية ٢١.

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٧.

فزدها طولاً. فلا نجاة إلا بمخالفة الشيطان ولو أظهر النصح للإنسان.

٨ - الاستعانة بشياطين الإنس :

إن من الناس من تخالط بشاشة الإسلام قلبه فيقوى إيمانه ويعلو يقينه ويخالط الإسلام لحمه ودمه فلا يسير إلا على هديه ولا يستضيء إلا بنوره ولا يقتدي إلا برسوله ﷺ فهو ملتزم بالإسلام في كل صغيرة وكبيرة من أمور حياته، وهذا الصِّنْفُ من الناس - وهم قليل - يأتيهم الشيطان بكل شاردة وواردة فلا يستطيع أن يغويهم فبعد ما تعجزه الحيل معهم يستنجد بأوليائه من شياطين الإنس؛ ليعاونوه في تلك المهمة.

قال تعالى : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[1] فنجد الشاب إذا هداه الله للالتزام بالإسلام التزامًا كاملاً والسير على نهج خير الأنام ﷺ جاءته الفتن من كل جانب تكشر عن أنيابها فإذا استعصم بحبل الله وصبر وتغلب على شياطين الجن وانتصر عليها جاءه أصدقاء السوء وأتراب الفسوق يثبطون من عزيمته ويوهنون من قوته في الحق ويقولون له :

«ما لك قد حرمت نفسك من متع الحياة فلم تعد تنظر إلى الفتيات الجميلات ولا تشاهد الأفلام والمسرحيات ولا تستمع إلى الفنانين والفنانات وتركت الحفلات والسهرات وتركت الربا في المعاملات وأصبحت تقول هذا حلال وهذا من المحرمات ، إنا نراك قد ضيعت شبابك وفاتك كثير من اللذات. . . .».

فقل لهم :

إِنِّي أَخَافُ مِنَ الضَّلَالِ وَإِنَّنِي ... أَمْشِي عَلَى نَهْجِ الحَبِيبِ مُحَمَّدِ
عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا ... وَرَغِبتُ فيمَا عِندَ رَبِّي الأَمْجَدِ
وَرَغِبتُ عَنْ سُبُلِ الضَّلَالَةِ كُلِّهَا ... فَأَنَا بِغَيْرِ مُحَمَّدٍ لا أَقْتَدِي
وَأَدْعُوكَ إِلَى هَذَا الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ ... طَرِيقُ الْمَجْدِ والْهُدَى والسُّؤْدُدِ

(١) سورة الأنعام الآية ١٢١.

فربما لا يستجيب لك من أول وهلة فقل له :

إِنِّي رَأَيْتُ عَـوَاقِـبَ الـدُّنْـيَـا ... فَتَـرَكْتُ مَـا أَهْوَى لِمَـا أَخْشَـى
فَـكَرَّتُ فِـي الدُّنْـيَـا وَعَالَـمِهَـا ... فَـإِذَا جَمَـيـعُ أُمُورِهَـا تَـفْنَـى
وَلَقَـدْ مَرَرتُ عَـلَى القُـبورِ فَـمَا ... مَـيَّزْتُ بَـيْـنَ الْعَـبْـدِ والمَوْلَـى

فإن شعرت منه لينًا فزده :

مَنْ كَانَ يعلـمُ أنَّ الموْتَ مُدْركُهُ ... وَالْقَبْرُ مَسْكَنُـهُ وَالْبَعْثُ مَخْرَجُهُ
وَأَنَّـهُ بَيْـنَ جَـنَّات سَتُـبْـهِجُـهُ ... يَوْمَ الْـقِيَامَةَ أَوْ نَـار سَتُنْضِـجُهُ
فَكُلُّ شَيْءٍ سِوَى التَّـقْوَى به سَمِجٌ ... وَمَا أَقَـامَ عَلَـيهِ مِـنْهُ أَسْـمَجَـهُ
تَرَى الَّذِي اتَّـخَذَ الدُّنْيَا لَـهُ وَطَنًا ... لَمْ يَدْرِ أَنَّ المنَايَـا سَوْفَ تُزْعِجُهُ

فإن وجدته أسيرًا لغفلة فذكره بقولك :

نَهَـارُكَ يَا مَـغْرُورُ سَهْـوٌ وَغَفْـلَةٌ ... وَلَيْـلُكَ نَوْمٌ وَالأَمْـسُ لَكَ لاَزِمُ
تُسَـرُّ بِمَا يَـفْنَى وَتَـفْرَحُ بِالمُـنَى ... كَمَا سُرَّ بِاللـذَّات فِي النَّوْمِ حَالِمُ
وَشُـغْـلُكَ فِـيْـمَـا تَـكْرَهُ غِـبَّـةٌ ... كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَـعِيْشُ البَهَائِمُ

فإن وجدته مغرورًا بفتوته وشبابه فقل له :

نَعَمْ أَنْتَ الشُّجَاعُ لَـوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَـيْـرَ أَنَّ لا بَـقَاءَ لِـلإِنْـسَـانِ
لَيْـسَ فِيْمَـا بَدَا لَنَـا مِنْكَ عَـيْبٌ ... كَانَ فِي الـنَّاسِ غَيْرُ أَنَّـكَ فَانِ

ثم ذكره بقولك :

نَسِيرُ إِلَى الآجَـالِ فِي كُلِّ سَاعَةَ ... وَأَيَّامُـنَا تُـطْوَى وَهُـنَّ مَراحِـلُ
وَلَمْ نَـرَ مِثْلَ المـوْتِ حَقّاً كَـأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَـخَطَّتْـهُ الأَمَانِيُّ بَـاطِلُ
تَرَحَّلْ عَنِ الدُّنْيَـا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَـعُـمْـرُكَ أَيَّامٌ تُـعَـدُّ قَـلاَئِـلُ

ثم قل له ناصحًا :

يَا خَادِمَ الجِسْمِ كَمْ تَشْقَى بِخِدْمَتَهِ ... لِتَطْلُبَ الرِّبْحَ مِـمَّا فِيهِ خُسْرَانُ
أَقْبِلْ عَلَى النَّفْسِ واسْتَكْمِلْ فضَائِلَهَا ... فَأَنْتَ بِالنَّفْـسِ لا بالجسم إِنْسَانُ

فإن قبل نصحك وعمل بقولك فالحمد لله ، وإن أصر على أن يأخذك معه في طريق الغواية والضلال فاحذره فإنه من شياطين الإنس.

قال مالك بن دينار : «إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن ، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانًا»[١].

فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن ونسأله سبحانه أن يقينا شرهم ويكفينا مكرهم.

(١) تفسير القرطبي (٧/ ٦٧).

obeikandl.com

مداخل الشيطان

١ - الجهل :

وهو مدخل عظيم من مداخل الشيطان ولا نبالغ إذا قلنا بأن كل مداخل الشيطان منه تبدأ، وعليه تعتمد وبه تقوى؛ لأن الجاهل لا يعرف مداخل الشيطان فيسدها ولا مكائده فيبطلها ولا شباكه فيتجنبها. فيجتذبه الشيطان بسهولة ويتغلب عليه بأدنى حيلة.

كما أن الجاهل لا يعرف الخير من الشر ولا السنة من البدعة، فربما أوقعه في الشر وهو يحسب أنه خير، وربما أوقعه في البدعة وهو يظنها سنة وبهذا يكون من الخاسرين: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(١).

والجهل يطمس القلب ويعمي البصيرة ومن هنا يكون الجاهل للشيطان غرضًا فيوجه إليه سهام الشبهات وسموم الشهوات، فيرديه قتيل الهوى أسير الشهوة فإذا وصل إلى تلك الغاية اتخذه الشيطان جندًا ينشر به الفساد في الأرض ويصد به الناس عن الحق وبهذا يصير من حزب الشيطان ﴿أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(٢) ولذا قيل :

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ الموتِ مَوْتٌ لأَهْلِه ... فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ الْقُبُورِ قُبُورُ
وَإِنِ امْرُؤٌ لَمْ يَحْيَ بَالْعِلْمِ مَيْتٌ ... فَلَيْسَ لَهُ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

ومن مداخل الشيطان على الجاهل أنه يصده عن طلب العلم ويقول له أيجمل بك أن تجلس أمام العالم جلسة الطالب وأنت قد كبرت؟! فيرضى الجهل.

قال أبو الحسن الماوردي : وربما امتنع الإنسان عن طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره في صغره أن يتعلم في كبره ، فرضي بالجهل أن يكون موسومًا به وآثره على العلم أن يكون مبتدئًا به. وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل؛ لأن العلم إذا

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٣.

(٢) سورة المجادلة الآية ١٩.

كان فضيلة فرغبة ذوي الأسنان منه والابتداء بالفضيلة فضيلة، ولئن يكون شيخًا متعلمًا أولى من أن يكون شيخًا جاهلاً ا هـ[١].

وقد قيل : لئن تموت طالبًا للعلم خير من أن تعيش قانعًا بالجهل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «اغد عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًا ولا تكن الخامس فتهلك»[٢].

فإن وجد من الجاهل رغبة في العلم قال له : إن تعلمت العلم ولم تعمل به كان حجة عليك ، فأجمل بك أن لا تتعلمه لكي تخف مؤنتك ويقوى عذرك. وما علم المسكين أن العلم هو الذي يكشف عنه تلك الظلم ويزيح عنه تلك المحن فهو المرشد والمعين كما قال أحد العلماء: «طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله».

وقال رجل لأبي هريرة : أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال: كفى بترك العلم إضاعة.

ومن العجب أن الشيطان يخيل لبعض الجهال أنه عالم وهذا منتهى التلبيس وقمة الغرور . وقد قسم الخليل بن أحمد الناس من حيث العلم إلى أربعة أقسام فقال : الرجال أربعة : رجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك ناس فذكروه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فارفضوه.

وقال أبو القاسم الآمدي :

إِذَا كُنْتَ لاَ تَدْرِي وَلَمْ تَكُ بِالَّذِي ... يُسَائِلُ مَنْ يَدْرِي فَكَيْفَ إِذًا تَدْرِي

جَهِلْتَ وَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّكَ جَاهِلٌ ... فَمَنْ لِي بِأَنْ تَدْرِي بِأَنَّكَ لاَ تَدْرِي

إِذَا جِئْتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ بِغُمَّةٍ ... فَكُنْ هَكَذَا أَرْضًا يَدُسْكَ الَّذِي يَدْرِي

وَمِنْ أَعْجَبَ الأَشْيَاءِ أَنَّكَ لاَ تَدْرِي ... وَأَنَّكَ لاَ تَدْرِي بِأَنَّكَ لاَ تَدْرِي

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٦ .

(٢) روي عن أبي بكر مرفوعًا بسند ضعيف راجع مختصر المقاصد الحسنة ح رقم ١١٩ .

ومداخل الشيطان على الجاهل كثيرة لا نستطيع إحصاءها ويكفيك أن تعرف أن كل المداخل منها تتفرع.

٢ - الغضب :

الغضب من مداخل الشيطان الكبرى ومكائده العظمى ؛ لأن الشيطان يلعب بالغضبان كما يلعب الأطفال بالكرة والمشاهدة أكبر دليل على ذلك.

يقول أبو حامد الغزالى - رحمه الله -: «يتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان مظلم إلى الدماغ يستوي على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بها ، وتسود عليه الدنيا بأسرها ويكون دماغه مثل الكهف الذي اضطرمت فيه نار فاسود جوه وحمي مستقره وامتلأت بالدخان جوانبه، وربما تقوى نار الغضب فتفنى الرطوبة التي بها حياة القلب فيموت صاحبه غيظًا.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر : تغير اللون وشدة ارتعاد الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام حتى يظهر الزبد على الأشداق، وتحمر الأحداق، وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره، فإن الظاهر عنوان الباطن ، هذا أثره في الجسد.

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام، الذي يستحيى منه ذو العقل ويستحيى منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ.

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوب عليه أو فاته بسبب وعجز عن التشفي رجع الغضب على صاحبه فمزق ثوبه ولطم نفسه وقد يضرب بيده على الأرض وقد يضرب الجمادات ويتعاطى أفعال المجانين.

أما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمسآت والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من

القبائح ا هـ ملخصًا[١].

وكلما فتر الغضب أثاره الشيطان بمثل قوله هو مستهزئ بك، لابد أن تنتقم وغير ذلك مما يثير الغضب، ومن هنا وجب على المسلم العاقل أن يغلب شيطانه ويكظم غيظه ويلتمس العذر لغيره.

روى البزار عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ مر على قوم يصطرعون فقال: ما هذا ؟ قالوا : فلان ما يصارع أحدًا إلا صرعه.. قال: «أفلا أدلكم على من هو أشد منه ؟ رجل كلمه رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه» قال الحافظ : سنده حسن[٢].

فالقوة الحقيقية هي التحكم في النفس عند الغضب فلا ينطق بسوء ولا يتلفظ بفحش ولا يمضي غيظه كما قال النبي ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[٣].

والصرعة بضم الصاد وفتح الراء : الذي يصرع الناس ويغلبهم وهو المقصود هنا. «وأما الصرعة» بسكون الراء فهو الضعيف الذي يصرعه الناس ويغلبونه. ولذلك رغب النبي ﷺ في كظم الغيظ وترك الغضب، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رجل لرسول الله ﷺ : «دلني على عمل يدخلني الجنة». قال رسول الله ﷺ : «لا تغضب ولك الجنة»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : أوصني قال: «لا تغضب» فردد مرارًا قال: «لا تغضب»[٥] رواه البخاري وزاد أحمد في رواية : قال الرجل : ففكرت حين قال النبي ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله.

---

(١) الإحياء (٦٤٣).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٥١٩).

(٣) رواه البخاري (١٠/ ٥١٨ فتح)، مسلم (١٦/ ١٦٢ بشرح النووي).

(٤) قال الحافظ المنذري رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح الترغيب (٥/ ١١٥).

(٥) البخاري (١٠/ ٥١٩ فتح).

وعن عبد الله بن عمرو قال : سأل رجل رسول الله ﷺ : ما يبعدني من غضب الله ؟ قال ﷺ : «لا تغضب» قال الحافظ العراقي : رواه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن[١].

ولا يمكن لآدمي معتدل الخلق أن يتخلى عن غريزة الغضب التي عليها جُبل وبها طبع ولكن عليه أن يقطع الآثار المهيجة للغضب كعزة النفس والكبر وغير ذلك.

قال علي بن زيد: أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فقال عمر : أردت أن يستفزني الشيطان لعزة السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً انصرف رحمك الله[٢].

تسكين الغضب: فإذا غضب فعليه أن يسكن غضبه ويهدئ من ثورته وذلك بعدة أمور :

الأول – أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم . فعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم». فقام إلى الرجل ممن سمع النبي ﷺ فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفا؟ قال: لا . قال إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقال الرجل : أمجنون تراني؟[٣].

الثاني – أن يتذكر ثواب كظم الغيظ وأجره العظيم فيكظم غيظه رغبة فيما عند الله تعالى ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما من جرعة – أعظم أجراً عند الله – غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»[٤]. رواه ابن ماجه قال المنذري ورواته محتج بهم في الصحيح.

---

(١) تخريج الإحياء ١٦٣٨.

(٢) أدب الدنيا والدين ٢٣٣.

(٣) البخاري (١٠/ ٥١٩ فتح) ، مسلم (١٦/ ١٦٣ بشرح النووي).

(٤) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٠١) وفي الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات.

obeikandl.com

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه كلهم من طريق عبد الرحيم بن ميمون عن سهل بن معاذ عن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «من كظم غيظًا وهو قادر أن ينفذه دعاه الله سبحانه على رءوس الخلائق حتى يخيره من الحور العين ما شاء»(١).

الثالث - أن يسكت ؛ لأنه يكون أقرب إلى الخطأ في هذه الحالة فالسكوت أسلم كما قيل :

إِذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ
سَكَتُّ عَنِ السَّفِيهِ فَظَنَّ أَنِّي ... عَيِيتُ عَنِ الْجَوَابِ وَمَا عَيِيتُ

وقال ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(٢).

وروى أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي من حديث ابن عباس مرفوعًا «إذا غضبت فاسكت»(٣).

الرابع - أن يجلس أو يضطجع لما رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن أبي ذر مرفوعًا : «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»(٤).

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٤٨) والترمذي (٣/ ٢٥١) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠) وقال الترمذي : حسن وهو كما قال عبد الرحيم بن ميمون احتج به ابن خزيمة والحاكم أيضًا وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الحافظ : لا بأس به إلا في روايات زبان عنه وهذه الرواية ليست منها كما ترى.

(٢) البخاري (١٠/ ٤٤٥ فتح) ، مسلم (٢ / ١٨ بشرح النووي).

(٣) ولا يصح ؛ لأنه من طريق ليث بن أبي سليم وليث هذا ضعفه النسائي ويحيى بن معين وقال عنه الحافظ: صدوق اختلط أخيرًا ولم يتميز حديثه فترك.

(٤) رواه أبو داود (٤/ ٢٤٩) عن بكر أن النبي ﷺ بعث أبا ذر فذكره.

الترغيب والترهيب (٥/ ١١٨) قال الحافظ العراقي: سند أحمد جيد. قلت : وفي النفس من هذا شيء ؛ فإنه رواه من طريق أبي حرب بن أبي الأسود عن أبي ذر، قال المنذري : وقد قيل إن أبا حرب إنما يروي عن عمه عن أبي ذر ولا يحفظ له سماع من أبي ذر ا هـ.

وبهذا تظهر لنا علة الانقطاع فيه فالله أعلم . ثم وجدت له طريقًا أخرى عند أبي داود (٤/ ٢٤٩) وبهذا يكون الحديث حسنًا.

وروى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات ، ألا وإن منهم البطيء الغضب السريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء، فتلك بتلك، ألا وإن منهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وخيرهم بطيء الغضب سريع الفيء، وشرهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض» وقال الترمذي: حديث حسن.

الخامس – أن يتفكر في قبح منظره عند الغضب فإن هذا مما يسكنه . أما أحاديث الوضوء عند الغضب فلا يصح منها شيء فيما أعلم.

السادس : أن يتذكر جزاء الصفح وثوابه عند الله تعالى فيدفعه ذلك إلى تحمل جهل الجاهل وسفه السفيه ابتغاء مرضات الله وما عنده من الثواب العظيم.

قال تعالى في صفة المتقين : ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1] فالمسلم عندما يكظم غيظه يضع نفسه في عداد المتقين فإذا عفا وسامح ارتفع إلى درجة المحسنين. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ «الصبر عند الغضب والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله، وخضع لهم عدوهم» ذكره البخاري تعليقًا مجزومًا به[2].

وروي عن الحسن البصري أنه قال : «من علامات المسلم : قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وعلم في حلم ، وكيس في رفق، وإعطاء في حق وقصد في غنى، وتحمل في فاقة، وإحسان في قدرة، وصبر في شدة ، ولا يغلبه الغضب ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

(٢) رواه البخاري – كتاب التفسير – سورة فصلت.

تقتصر به نيته، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل، ولا يبذر ، ولا يسرف، ولا يقتر ، يغفر إذا ظلم، ويعفو عن الجاهل، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء».

السابع - أن يترفع بنفسه عن السباب والقذف واللعن والشتم؛ لأن ذلك من صفات السفيه.

كما روي عن سلمان أنه قال لما شتمه رجل : «إن خفت موازيني فأنا شر مما تقول وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول».

وروي أن رجلاً سبَّ أبا بكر رضي الله عنه فقال أبو بكر: «ما ستر الله عنك أكثر».

ورُوي أن امرأة قالت لمالك بن دينار : يا مراءٍ فقال : «ما عرفني غيرك».

وروي عن الأحنف بن قيس أنه قال : «ما عاداني أحد قط إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث : إن كان أعلى مني عرفت له قدره ، وإن كان دوني رفعت قدري عنه، وإن كان نظيري تفضلت عليه».

فأخذه الخليل فنظمه شعرًا :

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ ... وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلا وَاحِدٌ مِنْ ثَلاثَةٍ ... شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمُ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وَأَتْبَعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لاَزِمُ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَأَحْلُمُ دَائِبًا ... أَصُونُ بِهِ عِرْضِي وَإِنْ لامَ لاَئِمُ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا ... تَفَضَّلْتُ، إِنَّ الْفَضْلَ بِالْفَخْرِ حَاكِمُ

وقال بعضهم :

وَفِي الْحِلْمِ رَدْعٌ لِلسَّفِيهِ عَنِ الأَذَى ... وَفِي الْخَرَقِ إِغْرَاءٌ فَلا تَكُ أَخْرَقَا
فَتَنْدَمَ إِذْ لا يَنْفَعُكَ نَدَامَةٌ ... كَمَا نَدِمَ الْمَغْبُونُ لَمَّا تَفَرَّقَا

وقال غيره :

أُحِبُّ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ جَهْدِي ... وَأَكْرَهُ أَنْ أَعِيبَ وَأَنْ أُعَابَا

وَأَصْفَحُ عَنْ سِبَابِ النَّاسِ حِلْمًا وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السِّبَابَا
وَمَنْ هَابَ الرِّجَالَ تَهَيَّبُوهُ وَمَنْ حَقِرَ الرِّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا

واعلم أن الغضب نوعان: إما أن يكون الغضب للنفس وهذا مذموم، وقد تقدم بيانه وإما أن يكون لله وهذا محمود بل مندوب فقد كان النبي ﷺ وهو الرءوف الرحيم - إذا ما رأى مخالفة شرعية غضب واحمر وجهه ولم يسكت حتى يغيرها. فعن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل عليَّ رسول الله ﷺ وفي بيتي قرام - أي ستر - فيه صور فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ثم قال : «من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور»(١).

ورأى رسول الله ﷺ في قبلة المسجد نخامة فحكها بيده وتغيظ وقال: «إن أحدكم إذا كان في الصلاة فإن الله حيال وجهه، فلا يتنخمن حيال وجهه في الصلاة»(٢) ومن هنا يتبين لنا أن رسول الله ﷺ كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله.

٣ - حب الدنيا :

لقد زينها الشيطان وزخرفها في قلوب كثير من الناس فركنوا إليها واطمأنوا بها بل وعَضُّوا عليها بنواجذهم ونشبوا فيها أظفارهم ففيها يعادون وعليها يتنافسون ومن أجلها يتباغضون ويتحاسدون، ونفذ فيهم إبليس خطته حيث قال : «**لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُم أَجْمَعِين**»(٣). ويا أسفاه لقد اتبعوه وأطاعوه إلا من اعتصم بالله ولجأ إليه ورمى الدنيا خلف ظهره : ﴿**وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِين**﴾(٤).

ولو عرف الناس حقيقة الدنيا ما أقاموا لها وزنًا ولا جعلوا لها في قلوبهم مكانًا ولا

(١) رواه البخاري (١٠ / ٥١٧ فتح) ، مسلم (١٤/ ٨٨ بشرح النووي).
(٢) رواه البخاري (١/ ٥٠٩ فتح) ، مسلم (٥/ ٣٨ بشرح النووي).
(٣) سورة الحِجْر الآية ٣٩.
(٤) سورة سبأ الآية ٢٠.

على ألسنتهم ذكرًا والله خالقها قد بيّن حقيقتها فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١].

فالحياة لعب ولهو وزينة والعاقل من جعلها مزرعة للآخرة ولذلك نادانا الله تعالى بعد هذه الآية قائلا: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾[٢]. وكما حذرنا الله من الدنيا حذرنا منها رسوله ﷺ أيضا. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[٣].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[٥] وفي رواية: «كفافًا» رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه.

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[٦].

---

(١) سورة الحديد الآية ٢٠.

(٢) سورة الحديد الآية ٢١.

(٣) رواه مسلم (١٧ / ٥٥ بشرح النووي).

(٤) رواه مسلم (٧ / ١٤٥ بشرح النووي)، الترمذي (٤/٦) وابن ماجه (٢/ ١٣٨٦).

(٥) رواه البخاري (١١ / ٢٨٣)، مسلم (١٨/ ١٠٥ بشرح النووي).

(٦) رواه مسلم (١٨ / ٩٤ بشرح النووي)

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم؟» فقالوا ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به ؟ قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا : والله لو كان حياً لكان عيبًا فيه؛ لأنه أسك فكيف وهو ميت ؟ فقال : «والله للدنيا أهون على الله عز وجل من هذا عليكم»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم»(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي والترمذي

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» رواه أحمد والبيهقي وقال المنذري في الترغيب (١٨/٦) : إسناده جيد.

وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(٣). رواه البخاري ومسلم.

ولقد طغى حب الدنيا في قلوب بعض الناس حتى عبدوها من دون الله!! فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي وإن لم يعطَ سخط»(٤).

ولو عرفوا قيمتها بالنسبة للآخرة لرفضوها وطلبوا الآخرة فقد قال رسول الله ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليمِّ». وأشار

---

(١) رواه مسلم (١٨ / ٩٣ بشرح النووي).

(٢) رواه الترمذي (٣/ ٣٨٤) ، ابن ماجه (٢/ ١٣٧٧) وقال الترمذي : حسن غريب.

(٣) رواه البخاري (١١/ ٢٤٣ فتح) ، مسلم (١٨/ ٩٥ بشرح النووي).

(٤) رواه البخاري (١١/ ٢٥٣ فتح).

يحيى بن يحيى بالسبَّابة، «فلينظر بم يرجع»[١].

وفي صحيح البخاري عن سهل رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها»[٢].

وروي عن الحسن البصري أنه قال : «رحم الله أقوامًا كانت الدنيا عندهم وديعة فأدوها إلى من ائتمنهم عليها ثم راحوا خفافًا».

وقال أيضًا رحمه الله : «من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره». وروي عن علي رضي الله عنه أنه قال : «من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلبًا ولا عن النار مهربًا : من عرف الله فأطاعه وعرف الشيطان فعصاه وعرف الحق فاتبعه وعرف الباطل فاتقاه وعرف الدنيا فرفضها وعرف الآخرة فطلبها».

وقال أيضًا في وصف الدنيا : «هي دار من صح فيها سقم ، ومن أمنَ فيها ندم ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها افتتن، في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب ومتشابهها العقاب».

وقال مالك بن دينار : «بقدر ما تحزن للدنيا يخرج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك».

وقال الحسن : والله لقد أدركت أقوامًا كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ، ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا.

وقال بعضهم : «يا ابن آدم فرحت ببلوغ أملك وإنما بلغته بانقضاء أجلك ، ثم سوفت بعملك كأن منفعته إلى غيرك».

وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: إنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم عليه.

---

(١) رواه مسلم (١٧ / ١٩٢ بشرح النووي).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٣٢ فتح).

وقال أبو سليمان : لا يصبر عن شهوات الدنيا إلا من كان في قلبه ما يشغله بالآخرة.

وقال مالك بن دينار : اصطلحنا على حبِّ الدنيا فلا يأمر بعضنا بعضًا ولا ينهى بعضنا بعضًا ولا يدعنا الله على هذا فليت شِعْرِي، أي عذاب الله ينزل علينا.

وقال الشافعي رحمة الله عليه : «الدنيا دار مذلة، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله وارضَ برزق الله ، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك، فإن عيشك ظل زائل ، وجدار مائل، أكثر من عملك ، واقصر من أملك».

وقال علي - كرم الله وجهه : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها، المبلية أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها، فإنما مثلكم ومثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقًا وكأنهم قد قطعوه ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها فإنه إلى انقطاع، ولا تمرحوا لمتاعها ونعمائها فإنها إلى زوال، عجيب لطالب الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه.

وقد قيل :

نَسيرُ إِلَى الآجَالِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ... وَأَيَّامُنَا تَمْضِي وَهُنَّ مَرَاحِلُ
وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الموْتِ حَقّاً كَأَنَّهُ ... إِذَا مَا تَخَطَّتْهُ الأَمَانِيُّ بَاطِلُ
وَمَا أَقْبَحَ التَّفْرِيطَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ... فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ لِلرَّأْسِ شَاغِلُ
تَرَحَّلْ مِنَ الدُّنْيَا بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... فَعُمْرُكَ أَيَّامٌ وَهُنَّ قَلاَئِلُ

وقال الإمام البخاري رحمه الله :

اغْتَنِمْ فِي الْفَرَاغِ فَضْلَ رُكُوعٍ ... فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مَوْتُكَ بَغْتَةَ
كَمْ مِنَ صَحِيحٍ مَاتَ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ ... ذَهَبَتْ نَفْسُهُ الصَّحِيحَةُ فَلْتَةَ[1]

(١) انظر هدي الساري ٤٨١.

وقيل أيضًا :

أَلا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلاَمِ نَائِمٍ ... وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لاَ يَكُونُ بِدَائِمِ
تَأَمَّلْ إِذَا مَا نِلْتَ بِالأَمْسِ لَذَّةً ... فَأَفْنِيهَا هَلْ أَنْتَ إِلا كَحَالِمِ

واعلم أن حب الدنيا إذا طغى على القلب فتح للشيطان بابًا آخر ألا وهو:

٤ - طول الأمل :

فإن العبد إذا طال أمله سوَّف في عمله وعمَّرَ دنياه وخرب أخراه. قال أبو هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين : في حب الدنيا ، وطول الأمل»[١].

قال البخاري : قال علي بن أبي طالب : «ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الآخرة مقبلة: ولكل واحدة منهما بَنُون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل» هكذا رواه معلقًا[٢].

وقد قيل :

إِنَّا لَنَفْرَحُ بِالأَيَّامِ نَقْطَعُهَا ... وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الأَجَلِ
فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ الْمَوْتِ مُجْتَهِدًا ... فَإِنَّمَا الرِّبْحُ وَالْخُسْرَانُ فِي الْعَمَلِ

وقيل أيضًا:

مَضَى أَمْسُكَ الْمَاضِي شَهِيدًا مُعَدَّلا ... وَأَعْقَبَهُ يَوْمٌ عَلَيْكَ جَدِيدُ
فَإِنْ كُنْتَ بِالأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً ... فَثَنِ بِإِحْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
فَيَوْمُكَ إِنْ أَعْقَبْتَهُ عَادَ نَفْعُهُ ... عَلَيْكَ وَمَاضِي الأَمْسِ لَيْسَ يَعُودُ
وَلا تُرجِ[٣] فِعْلَ الْخَيْرِ يَوْمًا إِلَى غَدٍ ... لَعَلَّ غَدًا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ

---

(١) رواه البخاري (١١ / ٢٣٩ فتح) ، مسلم (٧/ ١٣٨ بشرح النووي).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٣٥).

(٣) الإرجاء : التأخير.

وقال الحسن البصري : نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك ، وإن أسأت إليه ارتحل بذمك وكذلك ليلتك.

وقال الجاحظ : وجد مكتوبًا في حجر : «يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غدًا ندمك لو قد زلت بك قدمك ، أسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب ، وانصرف عنك الحبيب»(١).

وقال بعضهم :

أَلا إِنَّمَا الدُّنْيَا مَقِيلٌ لِرَاكِبٍ ... قَضَى وَطَرًا مِنْ مَنْزِلٍ ثُمَّ هَجَرَا

فَرَاحَ وَلاَ يَدْرِي عَلاَمَ قُدُومُهُ؟ ... أَلا كُلُّ مَا قَدَّمْتَ يَبْقَى مَوْفُورا

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك»(٢).

ففي هذا الحديث بين لنا رسول الله ﷺ أن المسلم في الدنيا غريب عن وطنه الأصل ألا وهو الجنة التي أخرج أبوه آدم منها فلابد أن يجتهد ليعود إليه.

وفي هذا المعنى يقول ابن القيم - رحمه الله :

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا ... مَنَازِلُكَ الأُولَى وَفِيهَا المَخْيَمُ

وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِ فَهَلْ تُرَى ... نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنا وَنَسْلَمُ

وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الغَرِيبَ إِذَا نَأَى ... وَشَطَّتْ بِهِ أَوْطَانُهُ فَهُوَ مَغْرَمُ

وَأَيُّ اغْتِرَابٍ فَوْقَ غُرْبَتِنَا الَّتِي ... لَهَا أَضْحَتِ الأَعْدَاءُ فِينَا تحكَّمُ(٣)

---

(١) أدب الدنيا والدين ١٠٢.

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٣٣ فتح).

(٣) حادي الأرواح ٨.

وكان عطاء السلمي يقول في دعائه : «اللهم ارحم في الدنيا غربتي ، وارحم في القبر وحشتي، وارحم موقفي غدًا بين يديك»

وقال بعضهم :

سَبِيلُكَ فِي الدُّنْيَا سَبِيلُ مُسَافِرٍ ... وَلاَبُدَّ مِنْ زَادٍ لَكُلِّ مُسَافِرِ

وَلاَ بُدَّ لِلإِنْسَانِ مِنْ حَمْلِ عُدَّةٍ ... وَلا سِيَّمَا إِنْ خَافَ صَوْلَةَ قَاهِرِ

وروى الحاكم عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». قال الحافظ : وأخرجه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون[١].

وهذا رسول الله ﷺ بين للصحابة قصر أجل الإنسان مع طول أمله مستعينًا في ذلك بالرسم الهندسي. ففي صحيح البخاري[٢] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط النبي ﷺ خطًّا مربعًا ، وخط خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط وقال: «هذا الإنسان وهذا أجله محيط به - أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار : الأعراض، فإن أخطأه هذه نهشه هذا ، وإن أخطأه هذا نهشه هذا».

قال الحافظ : وهذه[٣] صفته

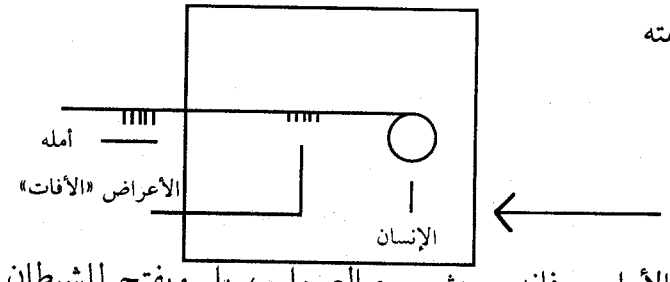

فإياك أخي المسلم وطول الأمل ، فإنه يورث سوء العمل ، بل ويفتح للشيطان بابًا

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٣٥).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٣٦ فتح).

(٣) فتح الباري (١١/ ٢٣٧).

آخر ألا وهو :

٥ - الحرص :

والحرص مفسدة للدين أي مفسدة؟! ، فعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[١] رواه الترمذي وقال : حسن صحيح وصححه ابن حبان.

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من أشرب حب الدنيا التاظ منها بثلاث : شقاء لا ينفد عناه ، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، فالدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يدركه الموت، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه»[٣].

وقد قيل :

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي حِلٍّ وَتَرْحَالِ ... وَطُولِ سَعْيٍ وَإِدْبَارٍ وَإِقْبَالِ

وَنَازِحُ الدَّارِ لا أُبْقِيكَ مُغْتَرِبًا ... عَنِ الأَحِبَّةِ لاَ يَدْرُونَ مَا حَالِي

بِمَشْرَقِ الأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَغْرِبِهَا ... لاَ يَخْطُرُ الْمَوْتُ مِنْ حِرْصِي عَلَى بَالِي

وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَةٍ ... إِنَّ القُنُوعَ الغِنَى لاَ كَثْرَةُ المَالِ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «ليس الغنى من كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[٤].

قال القرطبي[٥]: معنى الحديث أن الغنى النافع أو العظيم أو الممدوح هو غنى النفس

(١) رواه الترمذي (٤/ ١٦).

(٢) رواه الترمذي (٣/ ٣٨٩) وقال : حسن صحيح وصححه الحاكم وابن حبان.

(٣) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٦/ ١٧) : رواه الطبراني بإسناد حسن.

(٤) رواه البخاري (١١/ ٢٧١ فتح) ، مسلم (٧/ ١٤٠ بشرح النووي)

(٥) القرطبي هذا هو صاحب المفهم في شرح صحيح مسلم، وهو شيخ القرطبي صاحب التفسير.

وبيانه أنه إذا استغنت نفسه كفت عن المطامع فعزت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من يكون فقير النفس لحرصه فإنه يورطه في رذائل الأمور، وخسائس الأفعال، لدناءة همته وبخله، ويكثر من يذمه من الناس، ويصغر قدره عندهم فيكون أحقر من كل حقير، وأذل من كل ذليل، والحاصل أن المتصف بغنى النفس يكون قانعًا بما رزقه الله ، لا يحرص على الازدياد لغير حاجة، ولا يلح في الطلب ولا يلحف في السؤال، بل يرضى بما قسم الله له ، فكأنه واجد أبدًا، والمتصف بفقر النفس على الضد منه لكونه لا يقنع بما أُعْطِي، بل هو أبدًا في طلب الازدياد من أي وجه أمكنه ثم إذا فاته المطلوب ، حزن وأسف، فكأنه فقير من المال؛ لأنه لم يستغنَ بما أعطي، فكأنه ليس بغني. ثم غنى النفس إنما ينشأ عن الرضا بقضاء الله تعالى والتسليم لأمره علمًا بأن الذي عند الله خير وأبقى فهو معرض عن الحرص والطلب ، وما أحسن قول القائل:

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حَاجَةٍ فَإِنْ زَادَ شيئًا عَادَ ذَاكَ الْغِنَى فقْرًا

اهـ[1].

وقد قيل:

أَرَاكَ يَزِيدُكَ الإِثْرَاءُ حِرْصًا عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لاَ تَمُوتُ

فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْمًا إِلَيْهَا قُلْتَ : حَسْبِي قَدْ رَضِيتُ

فإياك أخي المسلم والحرص فإنه يذهب الدين والشرف معًا ويفتح للشيطان بابًا آخر ألا وهو :

٦ - البخل

قال تعالى :

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2]. فالشيطان يخوف الإنسان من الفقر لكي لا ينفق مما في يده في سبيل

(١) فتح الباري (١١/ ٢٧٢) .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٨.

الله ويخيل إليه أنه إذا أنفق افتقر واحتاج، ولكن الله يطمئن كل مؤمن موقن بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ مبينًا أن فضل الله لا منتهى له ورزق الله واسع وخزائنه ملأى لا تنفد أبدًا.

وعن أبي هريرة[1] رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا النبي ﷺ هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

ولقد بين الله تبارك وتعالى أن الفوز والفلاح في ترك البخل والشح فقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا»[4].

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: يا عبدي أنفق أُنفق عليك، وقال: يد الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما بيده، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان يخفض ويرفع»[5]. رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي أمامةَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٦٨ فتح).

(٢) سورة آل عمران الآية ١٨٠.

(٣) سورة الحشر الآية ٩.

(٤) رواه البخاري (٣/ ٣٠٤ فتح)، مسلم (٧/ ٩٥ بشرح النووي).

(٥) رواه البخاري (١٣/ ٣٩٣ فتح)، مسلم (٧/ ٨٠ بشرح النووي).

واليد العليا خير من اليد السفلى»[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر»[٢]. رواه البخاري والنسائي.

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[٣].

والمراد بالحسد هنا الغبطة: وهي تمني مثل ذلك وهذا لا بأس به بل ربما يكون طاعة، أما الحسد المذموم فهو تمني زوال النعمة وهو حرام.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال: «إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره وللخادم مثل ذلك، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئًا»[٤].

٧ - الكبر:

الكبر من مداخل الشيطان وبه يستذل الإنسان ويحمله على رد الحق والإصرار على الباطل، والمتكبر جاهل لا يعرف حقيقة نفسه ولا حقيقة ربه؛ لأنه لو عرف نفسه حق المعرفة لعلم أنه كان نطفة تشمئز منها النفس ثم علقة ثم مضغة ثم كان مولودًا صغيرًا ضعيفًا فعلام التكبر؟!

ولما كان الكبر داءً مهلكًا حذر الله تعالى منه فقال سبحانه: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾[٥]. وقال أيضًا ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ**

(١) رواه مسلم (٧/ ١٢٦ بشرح النووي)، الترمذي (٤/ ٤).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٢٦٠ فتح).

(٣) رواه البخاري (٩/ ٧٣ فتح).

(٤) رواه البخاري (٣/ ٢٩٣ فتح)، مسلم (٧/ ١١١ بشرح النووي).

(٥) سورة الإسراء الآية ٣٧.

obeikandl.com

مَن كَانَ مُختَالا فَخُورًا﴾[١].

وقال : ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيرِ الْحَقِّ﴾[٢] وقال : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٣]. والآيات في ذلك كثيرة.

وحذر النبي ﷺ من الكبر أيضًا وبين أن عاقبته وخيمة فقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[٤].

وقال النبي ﷺ قال الله تعالى : «العز إزاري ، والكبرياء ردائي فمن نازعني شيئًا منهما عذبته»[٥]. رواه مسلم والبرقاني في المستخرج.

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر»[٦] متفق عليه. والعتل : هو الغليظ الجافي ، والجواظ : هو الضخم المختال في مشيته.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «احتجت الجنة والنار، فقالت النار : فيَّ الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى الله بينهما إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابي أعذب بك من أشاء ولكليكما عليَّ ملؤها»[٧]. رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ ، وملك كذاب ،

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٤٦.

(٣) سورة غافر الآية ٣٥.

(٤) رواه مسلم (٢/ ٨٩ بشرح النووي) ، الترمذي (٣/ ٢٤٣).

(٥) رواه مسلم (١٦ / ١٧٣ بشرح النووي).

(٦) رواه البخاري (٨/ ٦٦٢ فتح) ، مسلم (١٧/ ١٨٧ بشرح النووي).

(٧) رواه مسلم (١٧/ ١٨٣ بشرح النووي).

obeikandl.com

وعائل مستكبر»[١]. رواه مسلم والنسائي، والعائل هو الفقير.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل ممن كان قبلكم يجر إزاره من الخيلاء خُسِفَ به وهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»[٢]. رواه البخاري والنسائي. والخيلاء: هو الكبر والعجب، ويتجلجل: أي يغوص وينزل فيها.

وعنه أيضًا أن النبي ﷺ قال: «من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[٣].

وعن أبي عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، كبه الله لوجهه في النار» رواه أحمد والبيهقي في الشعب وقال الحافظ العراقي: إسناده صحيح[٤].

وعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم»[٥]. «يذهب بنفسه» أي يترفع ويتكبر.

وقال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان وعينان تبصران ولسان ينطق يقول: «وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين»[٦].

وقال الحسن البصري - رحمه الله: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم

---

(١) رواه مسلم (٢/ ١١٥ بشرح النووي).

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٢٥٨ فتح)، النسائي (٨/ ٢٠٦).

(٣) رواه البخاري (١٠ / ٢٥٨ فتح)، مسلم (١٤/ ٦٠ بشرح النووي).

(٤) تخريج الإحياء ١٩٣٤.

(٥) رواه الترمذي (٣/ ٢٤٤) وقال: حديث حسن غريب.

(٦) رواه الترمذي (٤/ ١٠٣) وقال: حسن صحيح غريب. وصححه الألباني في الصحيحة (٥١٢) على شرط الشيخين.

مرة أو مرتين ثم يعارض جبار السموات.

وقال النعمان بن بشير على المنبر: إن للشيطان مصالي وفخوخًا ، وإن من مصالي الشيطان وفخوخه البطر بأنعم الله والفخر بإعطاء الله، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى في غير ذات الله.

وروي أن مطرف بن عبد الله الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها ويمشي الخيلاء فقال : يا أبا عبد الله ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟؟ فقال المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بل أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة، فترك المهلب مشيته هذه.

فأخذ ابن عوف هذا الكلام ونظمه شعرًا فقال :

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ ... وَكَانَ بِالأَمْسِ نُطْفَةً مَذِرَة

وَفِي غَدٍ بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ ... يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِيفَةً قَذِرَة

وَهُوَ عَلَى تِيهِهِ وَنَخْوَتِهِ ... مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ الْعَذِرَة[1]

وعن أبي بكر الهذلي قال : بينما نحن مع الحسن إذ مر علينا ابن الأهتم يريد المقصورة وعليه جباب خز قد نضد بعضها فوق بعض على ساقه وانفرج عنها قباؤه وهو يمشي يتبختر إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف شامخ بأنفه ثاني عطفه ، مصعر خده ، ينظر في عطفيه، أي حميق أنت، تنظر في عطفيك في نعم غير مشكورة ولا مذكورة غير مأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدي حق الله منها، وفي كل عضو من أعضائك لله نعمة، وللشيطان به لفتة، فسمع ابن الأهتم فرجع يعتذر إليه فقال: لا تعتذر إلَيَّ وتب إلى ربك أما سمعت قول الله تعالى : ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾[2].

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٠١

(٢) سورة الإسراء الآية ٣٧.

أنواع المتكبرين :

١ - من الناس من يتكبر بملكه أو مكانته الاجتماعية ويقوي هذا الكبر ويعظمه كثرة مديح المتقربين وإطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة ومكسبًا، والتملق خديعة وملعبًا فيمدحونه بما ليس فيه ويرفعونه فوق شأنه ومرتبته فيظن ذلك حقاً فيزداد كبراً.

وقد قيل : عجب لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح ولمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب؟!.

وقال الشاعر :

يَا جَاهِلا غَرَّهُ إِفْرَاطُ مَادِحِهِ ... لا يَغْلِبَنَّ جَهْلُ مَنْ أَطْرَاكَ عِلْمُكَ بِك

أَثْنَى وَقَالَ بِلا عِلْمٍ أَحَاطَ بِهِ ... وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَحْصُولِ مِنْ رِيبِك

وهذا النوع من الكبر منتشر في الملوك والرؤساء ، ولذلك يجب عليهم أن يبعدوا عنهم بطانة السوء التي تزين لهم سوء أفعالهم ولا تبين لهم قبيح أعمالهم فترديهم وتهلكهم. وهؤلاء الملوك لو عقلوا لعلموا أن الملك أيام لا تدوم، ولو دام لغيرهم ما وصل إليهم ، ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[1] فلا يبقى لهم إلا السيرة الحسنة أو السيئة.

٢ - ومن الناس من يتكبر بماله وهذا مغفل جاهل؛ لأنه لو كان عاقلاً لعلم أن المال عارية يمكن أن يأخذه الله في أي وقت وبأي سبب كصاحب الجنة الذي دخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدًا، فأرسل الله تعالى على جنته حسبانًا من السماء فتركها خاوية على عروشها.

وكقارون الذي تكبر بماله الذي كثر حتى إن مفاتيح الخزائن لا يستطيع حملها سبعة من الرجال الأقوياء ، فخسف الله تبارك وتعالى به الأرض هو وماله فكانت عاقبته الخسران المبين... ولو أن الله ابتلى ذلك الغني بمرض لتمنى أن يؤخذ منه ماله كله

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٦.

وترد إليه صحته. كما روي أن ملكًا من ملوك المسلمين طلب كوبًا من ماء ليشرب، فجاءه الخادم بالكوب وقال له : أيها الملك لا تشرب حتى أسألك سؤالاً. قال سل، قال : إذا منع منك هذا الكوب فبكم تشتريه؟ قال الملك : بنصف ملكي. قال: فإذا شربته ووقف في مثانتك فلم ينزل ، فكم تدفع حتى تنزله؟ قال ملكي كله. قال : إذًا فملكك لا يساوي بولة واحدة.

٣ - ومن الناس من يتكبر بقوته وصحته ، وهذا رجل غافل؛ لأن القوة ليست هي مقياس الشرف بين الناس، وهل قوة هذا الرجل تكافئ قوة حمار أو بغل؟.

ولو كانت القوة هي المقياس لاستحق الحمار أن يكون مديراً، والبغل أن يكون وزيراً والفيل أن يكون رئيسًا . ولكن المدار على العقل، فبه يصل الإنسان إلى معرفة ربه وخالقه، وبه يسير الإنسان في الناس سيراً حسنًا. وهو الذي يجنب صاحبه المضار والمهالك، وقد نسب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الآبيات الآتية:

إِنَّ المَكارِمَ أَخْلاقٌ مُطَهَّرَةٌ فَالْعَقْلُ أَولُهَا وَالدِّينُ ثَانِيهَا
وَالعِلْمُ ثَالِثُهَا والْحِلْمُ رَابِعُهَا والجُودُ خَامِسُهَا والْعُرْفُ سَادِيها
وَالبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبرُ ثَامِنُهَا وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا واللِّينُ عَاشِيهَا[1]

فانظر - هداك الله - إنه لم يعدَ القوة والفتوة من المكارم؛ لأنها لا تكون مفخرة إلا إذا استخدمت في الخير والصلاح.

وقد روي أن أبا حنيفة - رحمه الله - كان يلقي على تلامذته درس فقه وكان ماداً رجليه فدخل المسجد رجل حسن الهيئة فارع الطول وأتى حلقة أبي حنيفة ليستمع، فضم أبو حنيفة رجليه احترامًا للقادم وظل يلقي درسه حتى وصل إلى قوله : «وقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر من السماء» فقال هذا الرجل: يا شيخ أرأيت إن لم تغرب الشمس؟ فقال أبو حنيفة : الآن آن لأبي حنيفة أن يمد رجليه.

(١) أدب الدنيا والدين ١١.

وقد قيل :

يَزِينُ الفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِه ... وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُه
يَشِينَ الفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِه ... وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَافُهُ وَمَنَاسِبُه
يَعِيشُ الفَتَى فِي النَّاسِ بِالْعَقْلِ إِنَّهُ ... عَلَى العَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُه
وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ الأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُه
إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ وَمَآرِبُه[1]

٤ - ومن الناس من يتكبر بعلمه ، وهذا أجدر به أن يسمى جاهلاً؛ لأن العلم إن لم يزد صاحبه تواضعًا وخشية فليس بعلم نافع. فالعلم علمان: علم على اللسان وعلم في القلب ، فأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على خلقه، وأما الذي في القلب فهو الخشية[2].

وعن أسامة بن يزيد رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه[3] فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون : يا فلان ما شأنك ؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن الشر وآتيه» متفق عليه .

وكيف يسمى الرجل عالمًا وبه آفة الكبر وقد قيل:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيم
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي ... الضَّنَى كَيْمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيم
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيم
فَهُنَاكَ تُعْذَرُ إِنْ وَعَظْتَ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيُقْبَلُ التَّعْلِيم
لاَ تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيم

---

(١) أدب الدنيا والدين ٣.

(٢) رواه البخاري ومسلم (٨/ ١١٨ بشرح النووي).

(٣) أقتابه : أمعاؤه.

٥ - ومن الناس من يتكبر بجماله وحسن صورته وهذا أكثر ما يكون في النساء ، ولو عقلت المتكبرة بجمالها لعلمت أن الجمال من نصيب الدود ولو تخيلت صورتها في القبر بعدما أكل الدود لحومها وعينها ومنخرها، لرأت منظر مرعبًا مخيفًا، بل إن الجمال في الدنيا معرض للآفات والأمراض فكم من مرض ترك الجميلة شوهاء والفاتنة نكراء، فينفر منها الناس بعدما كانوا يتلهفون على رؤيتها.

وقد قيل :

يَا مُظْهِرَ الْكِبْرِ إِعْجَابًا بِصُورَتِهِ ... انْظُرْ خَلاكَ فَإِنَّ النَّتْنَ تَثْرِيبُ
لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمُ ... مَا اسْتَشْعَرَ الْكِبْرَ شُبَّانٌ وَلاَ شِيبُ
هَلْ فِي ابنِ آدمَ مِثْلُ الرَّأْسِ مَكْرُمَةٌ ... وَهْوَ بِخَمْسٍ مِنَ الأَقْذارِ مَضْرُوبُ
أَنْفٌ يَسِيلُ وَأُذْنٌ رِيحُهَا سَهْكٌ ... وَالْعَيْنُ مَرْفَضَةٌ وَالثَّغْرُ مَلْعُوبُ
يَا ابنَ التُّرَابِ وَمَأْكُولِ التُّرَابِ غَدًا ... أَقْصِرْ فَإِنَّكَ مَأْكُولٌ وَمَشْرُوبُ[1]

مظاهر الكبر :

١ - رد الحق : من مظاهر الكبر أن الإنسان الذي يتبين له خطؤه ولا يرجع إلى الحق ولا يقبله ، إنما يكون الدافع الوحيد له على ذلك هو الكبر، فكم من شيخ كبير أو عالم مشهور ناقشه تلميذ صغير في مسألة وتبين له خطؤه ولكنه لم يرجع إلى الحق أَنَفَةً وكبرًا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما قيل :

لَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ الْهُدَى ... لَمَّا أَتَى مِنْ أَصْغَرِ الأَبْنَاءِ
بَلْ حَارَبُوهُ بِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ ... وَرَمَوْهُ بِالتَّعْقِيدِ وَالإِعْيَاءِ

هذا في كثير من علماء زماننا ، أما علماء السلف رحمهم الله فقد كانوا يقبلون الحق أينما كان ، فهذا أبو حنيفة - رحمه الله - يقول : تعلمت نسك الحلق من الحلاق . وهذا الإمام مالك يرجع إلى قول تلميذه الصغير محمد بن إدريس الشافعي في مسألة

(١) أدب الدنيا والدين ٢١٢.

من مسائل الطلاق.

٢ - ومن مظاهر الكبر أيضًا : احتقار الناس وازدراؤهم والتعالي عليهم ولقد جمع النبي ﷺ مظاهر الكبر في قوله : «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(١).

ولما كان الكبر من مداخل الشيطان ومكايده فلا يمكن التخلص من هذه المكيدة إلا بالتواضع.

عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد». رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما تواضع أحد لله إلا رفعه» رواه مسلم والترمذي.

٨ - حب المدح :

اعلم أخي المسلم أنك إذا أحببت المدح فقد دخل عليك الشيطان من باب العجب وهو داء مهلك، هذا إن كنت تمدح بما فيك ويمكن التخلص منه بأن تتذكر عيوبك وذنوبك فما من إنسان إلا وله عيوب خفية كما قال أحد الصالحين لرجل مدحه : لو أن للذنوب ريحًا ما استطاع أحد أن يقترب مني.

أما إذا كان المدح بما ليس فيك فالفرح بذلك جنون ، قال بعض الحكماء : من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه. وقال ابن المقفع : قابل المدح كمادح نفسه(٢).

وقد قيل :

وَمَا شَرَفٌ أَنْ يَمْدَحَ المرءُ نَفْسَهُ ... وَلَكِنَّ أَعْمَالا تُذَمُّ وَتُمْدَحُ

وَمَا كُلُّ حِينٍ يَصْدُقُ المرءُ ظَنَّهُ ... وَلا كُلُّ أَصْحَابِ التِّجَارَةِ يَرْبَحُ

وَلا كُلُّ مَنْ تَرْجُو لِعَيْبِكَ حَافِظًا ... وَلاَ كُلُّ مَنْ ضَمَّ الْوَدِيعَةَ يَصْلُحُ(٣)

(١) رواه مسلم (٢ / ٨٩ بشرح النووي).

(٢) أدب الدنيا والدين ٢١٣.

(٣) السابق ٢١٤.

واعلم أن للمدح آفات كثيرة منها أنه يحدث كبرًا وإعجابًا في الممدوح وهذا مهلك للممدوح ، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلا يُثْني على رجل ويطريه في المدحة فقال: «أهلكتم - أو قطعتم - ظهر الرجل»[1] متفق عليه واللفظ للبخاري فقد بين النبي ﷺ أن المدح مهلكة.

وعن أبي بكر رضي الله عنه أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجل خيرًا فقال النبي ﷺ : «ويحك ، قطعت عنق صاحبك - يقول مرارًا - إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل : أحسب كذا وكذا ، إن كان يرى أنه كذلك وحسيبه الله . ولا يزكي على الله أحدًا»[2] متفق عليه.

ومن آفات المدح أنه يعمي الممدوح عن عيوبه فلا يشمر للتفتيش عنها.

ومن آفاته أيضًا أن الممدوح يظن نفسه خيرًا فلا يجتهد في الإكثار من الطاعات ولذلك يقول زياد بن أبي مسلم : ما من أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان.

وقال بعض السلف : من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل في باطنه.

وقال بعضهم : إذا قيل لك نعم الرجل أنت فكان أحب إليك من أن يقال لك بئس الرجل أنت، فأنت والله بئس الرجل.

ولذلك قال عمر بن الخطاب : «إياكم والمدح فإنه الذبح» وروي مرفوعًا من حديث معاوية ، أخرجه أحمد وابن ماجه (٢/ ١٢٣٢) وقال في الزوائد إسناده حسن.

قال أبو حامد الغزالى - رحمه الله - : «اعلم أن للناس أربعة أحوال بالنسبة إلى الذام والمادح.

الحالة الأولى : أن يفرح بالمدح ويشكر عليه ويغضب من الذم، ويحقد على الذام ويعاقبه.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٧٦ فتح)، مسلم (١٨/ ١٢٧ بشرح النووي).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٧٤ فتح) ، مسلم (١٨/ ١٢٦ بشرح النووي).

الحالة الثانية : أن يمتعض في الباطن على الذام ولكن يمسك لسانه وجوارحه عن معاقبته ويفرح باطنه ويرتاح للمادح ، ولكن يحفظ ظاهره عن إظهار السرور وهذا من النقصان ولكن بالإضافة إلى ما قبله كمال.

والحالة الثالثة : وهي أول درجات الكمال ، أن يستوي عنده ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة ولا تسره المدحة.

الحالة الرابعة : وهي الصدق في العبادة . أن يكره المدح ويمقت المادح إذ يعلم أنه فتنة له قاصمة لظهره مضرة له في الدين، ويحب الذام إذ يعلم أنه مُهْدٍ إليه عيوبه ومرشده إلى ذنوبه ا هـ. ملخصًا[1].

ولهذا وغيره أمر النبي ﷺ بحثو التراب في وجوه المداحين فقد رأى المقداد رضي الله عنه رجلا يمدح عثمان رضي الله عنه فعمد المقداد فجثا على ركبيته فجعل يحثو في وجهه الحصباء فقال له عثمان : ما شأنك؟! فقال : إن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[2] رواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

٩ - الرياء :

إن الرياء باب فسيح من الأبواب التي يلج الشيطان منها إلى قلب الإنسان ولذلك يجب على المسلم الذي يريد الله والدار الآخرة أن يحص في قلبه فإن وجد فيه التفاتًا لغير الله سارع بعلاجه، وأن يفتش في أعماله فإن وجد فيها شبهة من رياء طهرها، ولما كان الرياء هو التفات القلب لغير الله وترك مراعاة الخالق مع مراعاة المخلوقين سُمي شركًا أصغر[3].

فقد قال النبي ﷺ : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : «الرياء» يقول الله عز وجل إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم

---

(١) الإحياء ١٨٥٧.

(٢) رواه مسلم (١٨ / ١٢٨ بشرح النووي)، الترمذي (٤/ ٢٦) ابن ماجه (٢/ ١٢٣٢).

(٣) صححه الألباني في صحيح الترغيب (١ / ١٧).

جزاء؟»[١].

وأنواع الرياء كثيرة ، فمن الناس من يرائي بعلمه ، ومنهم من يرائي بعبادته، وكذلك من يرائي بصدقته ، ومثال ذلك ما رواه مسلم[٢] والنسائي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال هو جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال : فما فعلت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال: كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت ليقال هو قارئ ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال : فما عملت فيها؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

وعن أبي هند الداري رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : «من قام مقام رياء وسمعة رايا الله به يوم القيامة وسمع»[٣] قال الحافظ المنذري: رواه أحمد بإسناد جيد[٤].

وفي الصحيحين من حديث جندب أن النبي ﷺ قال : «من سمع سمع الله به، ومن يراء يراء الله به»[٥].

---

(١) قال الحافظ المنذري - رحمه الله - في الترغيب (١ / ٤٨) رواه أحمد بإسناد جيد. وصححه الألباني في صحيح الترغيب.

(٢) رواه مسلم (١٣ / ٥٠ بشرح النووي)، النسائي (٦/ ٢٤).

(٣) صححه الألباني ، صحيح الترغيب (١/ ١٦) ، السلسلة الصحيحة رقم (٩٥١).

(٤) الترغيب والترهيب (١/ ٤٤).

(٥) رواه البخاري (١١/ ٣٣٦ فتح) ، مسلم (١٨ / ١١٦ بشرح النووي).

ولذلك كان السلف الصالح رضي الله عنهم يخفون طاعاتهم كما يخفي الناس معاصيهم وعيوبهم.

واعلم أن الدافع على الرياء هو الطمع في مدح الناس وخوف مذمتهم، ويمكن التخلص من الرياء بالأمور الآتية :

١ - أن تعلم أن مدح الناس لا ينفعك إن كنت عند الله مذمومًا ، وذمهم لا يضرك إن كنت عند الله محمودًا.

٢ - أن تعلم أن المخلوق الضعيف الذي تطلب مدحه لا يملك لك ضراً ولا نفعًا خاصة يوم فقرك الأكبر وحاجتك العظمى.

٣ - أن تعلم أن الرياء يحبط العمل وربما حوله إلى كفة السيئات.

٤ - إن كنت تخشى اطلاع الناس على خبث باطنك وسواد قلبك في الدنيا فالله تعالى مطلع على ذلك وسيفضحك يوم القيامة أمام الجمع الأكبر وعلى رءوس الأشهاد.

٥ - إذا خطر عليك خاطر من الرياء فلتقم بمدافعته والتخلص منه ثم الالتفات إلى الله بقلبك.

واعلم أن الشيطان يدعوك أولاً لترك العمل ، فإن عجز دعاك إلى الرياء فيه، فإن وجد منك إخلاصًا قال لك هذا العمل ليس خالصًا وأنت مراءٍ، وتعبك ضائع حتى يحملك على ترك العمل فانتبه - حفظك الله - ولا تطع الشيطان فإنه عدو مضل مبين.

يقول الغزالى - رحمه الله - : والمتخلصون عن الرياء في دفع خواطر الرياء على أربع مراتب :

الأولى : أن يرد على الشيطان ويكذبه ولا يقتصر عليه بل يشتغل بمجادلته ويطيل الجدال معه لظنه أن ذلك أسلم لقلبه وهو على التحقق نقصان ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده وانصرف إلى قتال قطاع الطريق ، والتعريج على قتال قطاع الطريق نقصان في السلوك.

الثانية : أن يعرف أن الجدال والقتال نقصان في السلوك فيقتصر على تكذيبه ودفعه ولا يشتغل بمجادلته.

الثالثة : ألا يشتغل بتكذيبه أيضًا؛ لأن ذلك وقفة وإن قَلَّت ، بل يكون قد قرر في عقد ضميره كراهة الرياء وكذب الشيطان فيستمر على ما كان عليه مستصحبًا للكراهية غير مشتغل بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة : أن يكون قد علم أن الشيطان سيحسده فيعزم على أنه كلما نزغ الشيطان زاد هو في الإخلاص والاشتغال بالله وإخفاء الصدقة والعبادة غيظًا للشيطان.

يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له إن فلانًا يذكرك - أي بسوء - فقال : والله لأغيظن من أَمَرَهُ. قيل ومَنْ أمَرَه ؟ قال: الشيطان. ثم قال: اللهم اغفر له.

وإذا عرف الشيطان من عبد هذه العادة كف عنه خيفة أن يزيد في حسناته قال : وضرب الحارث المحاسبي لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه فقال: مثالهم كأربعة قصدوا مجلسًا من العلم والحديث لينالوا به فائدة وفضلاً وهداية ورشدًا، فحسدهم على ذلك ضال مبتدع وخاف أن يعرفوا الحق ، فتقدم إلى واحد فمنعه وصرفه عن ذلك ودعاه إلى مجلس ضلال فأبى ، فلما عرف إباءه شغله بالمجادلة فاشتغل معه ليرد ضلاله، وهو يظن أن ذلك مصلحة له، وهو غرض الضال ليفوت عليه بقدر تأخره.

فلما مر الثاني عليه نهاه واستوقفه ، فوقف فدفع في نحر الضال ولم يشتغل بالقتال واستعجل ففرح منه الضال بقدر توقفه للدفع. ومر به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله بل استمر على ما كان، فخاب منه رجاؤه بالكلية . ومر الرابع فلم يتوقف وأراد أن يغيظه فترك التأني وأسرع في المشي ، فيوشك إن عادوا ومروا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلا هذا الأخير[1].

ولهذا كان كثير من السلف إذا ألهاهم الشيطان عن طاعة فعلوها مضاعفة غيظًا للشيطان.

وقال إبراهيم التيمي : إن الشيطان ليدعو العبد إلى الإثم فلا يطعه وليحدث عند

---

(١) الإحياء (١٨٩٦).

ذلك خيرًا فإذا رآه كذلك تركه.

الرياء والأجر :

اعلم - هداك الله ـ أن الرياء إما أن يدخل في أصل العمل أو في أوصافه فإن دخل في أصل العمل ، يعني كان هو الدافع والباعث عليه بَطَلَ بالإجماع.

وإن دخل الرياء في أوصاف العمل كطول في ركوع أو سجود ، ففيه قولان أحدهما يبطله والآخر لا يبطله ولكن ينقص من أجره.

١٠ - العُجْب :

العُجْب يختلف عن الكبر ، فالكبر له ثلاثة أركان : متكبر ، ومتكبر به، ومتكبر عليه ، والعجب ليس له إلا ركنان اثنان: معجب ومعجب به فقط ، ولكن العجب هو الدرجة الأولى في سلم الكبر فنعوذ بالله منهما.

والعجب هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم.

والعُجْب أنواع : فمن الناس من يعجب بصحته وقوته وتناسب أعضائه وحسن صورته ، فليعلم أن ذلك من نصيب الدود وأن كل من عليها فان.

ومن الناس من يعجب بعقله وفطنته واستكشافه لبطائن الأمور الدينية والدنيوية وثمرة هذا العجب أن تجده مستبدًا برأيه مستجهلاً لغيره معرضًا عن سماع آراء الآخرين. فليفكر هذا العاقل فيما لو ابتلاه الله بمرض في دماغه لجن عقله وطار لبه، وذهب فكره، فليحمد الله على العافية وليشكره على النعمة.

ومن الناس من يعجب بنسبه ويظن أنه ناجٍ لا محالة، أليس هو ابن فلان المنسب من الحسن أو الحسين؟ فليعلم هذا الغافل أن من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه وأن النبي ﷺ نادى أقرب الناس إليه «يا فاطمة : اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئًا» متفق عليه[1].

ومن الناس من يعجب بكثرة أولاده وأهله وعشيرته وهذا يكفيه قول الله تعالى :

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٥٠١ فتح) ، مسلم (٣/ ٧٩ بشرح النووي).

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1] فأي عجب بمن يتركك في أشد أحوالك، ويهرب منك في أحرج أوقاتك.

ومن الناس من يعجب بماله وغناه فليقرأ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، وقول رسوله ﷺ: «بينما رجل يتبختر في حلة وقد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض فأخذته، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» متفق عليه[2].

ومن الناس من يعجب بعبادته، وهذا إنما أوتي جهله، لأنه لا يدري أقُبلت عبادته أم لا؟

وقال مسروق - رحمه الله تعالى -: «كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلا أن يُعجب بعمله»[3].

وعن عمر رضي الله عنه قال: إن من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك، ومن صلاح عملك أن ترفض عجبك، ومن صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك.

وقال مطرف بن عبد الله - رحمه الله -: لأنْ أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحب إلي من أن أبيت قائمًا وأصبح معجبًا.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً سألها فقال: متى أعلم أني محسن؟ قالت: إذا علمت أنك مسيء. قال: ومتي أعلم أني مسيء؟ قالت: إذا علمت أنك محسن.

وقال البخاري: قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من صحابة رسول الله ﷺ: كلهم يخاف النفاق على نفسه[4].

---

(١) سورة عبس / ٣٤: ٣٧.

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٢٥٨ فتح)، مسلم (١٤/ ٦٤ بشرح النووي).

(٣) رواه الدارمي (١/ ٩٣).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الإيمان باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

قال أبو الليث السمرقندي - رحمه الله - : من أراد أن يكسر العجب فعليه بأربعة أشياء :

أولها : أن يرى التوفيق من الله تعالى ، فإذا رأى التوفيق من الله تعالى فإنه يشتغل بالشكر ولا يعجب بنفسه.

والثاني : أن ينظر إلى النعماء التي أنعم الله بها عليه فإذا نظر في نعمائه اشتغل بالشكر عليها واستقل عمله ولم يعجب به.

والثالث : أن يخاف أن لا يتقبل منه فإذا اشتغل بخوف القبول لا يعجب بنفسه.

والرابع : أن ينظر في ذنوبه التي أذنب قبل ذلك، فإذا خاف أن ترجح سيئاته على حسناته فقد قل عجبه، وكيف يعجب المرء بعمله ولايدري ماذا يخرج من كتابه يوم القيامة ، وإنما يتبين عجبه وسروره بعد قراءة الكتاب. اهـ[1].

١١ - الجزع والهلع :

إن الجزع من مراكب الشيطان التي يحمل بها الإنسان في بحار الخيالات والأوهام حتى يكبه في محيط الحيرة والأحزان.

أما المؤمن فإنه يركب مراكب الصبر ويخوض بها في بحار الرضا والتسليم حتى يصل إلى محيط الفرج وهناك سيجد بر الأمان.

أما عن أسباب الجزع فيقول أبو الحسن الماوردي : منها تذكُّر المصاب حتى لا يتناساه، وتصوره حتى لا يعزب عنه ولا يجد من التذكار سلوة ولا يخلط مع التصور تعزية. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا تستفزوا الدموع بالتذكر.

وقال الشاعر : ولا يبعث الأحزان مثل التذكُّر.

ومنها الأسف وشدة الحسرة فلا يرى من مصابه خلفًا ولا يجد لمفقوده بدلاً فيزداد بالأسف ولهًا وبالحسرة هلعًا ولذلك قال تعالى : ﴿**لِكَيْلا تَأسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾[2].

---

(١) تنبيه الغافلين (٢٥٢).

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣.

وقال بعض الشعراء :

إِذَا بُلِيتَ فَثِقْ بِاللهِ وَارْضَ بِهِ ... إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ الْبَلْوَى هُوَ اللهُ
إِذَا قَضَى اللهُ فَاسْتَسْلِمْ لِقُدْرَتِهِ ... مَا لامْرِئٍ حِيلَةٌ فِيمَا قَضَى اللهُ
الْيَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ ... لا تَيْأَسَنَّ فَإِنَّ الصَّانِعَ اللهُ

ومنها كثرة الشكوى وبث الجزع فقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾(١) إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث.

وحكي عن كعب الأحبار أنه مكتوب في التوراة : من أصابته مصيبة فشكا إلى الناس فإنما يشكو ربه.

وحكي أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت صُراخًا في دارٍ فقالت : ما هذا ؟ فقيل لها : مات لهم إنسان ، فقالت : ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون ، وبقضائه يتبرمون ، وعن ثوابه يرغبون.

وقد قيل في منثور الحكم : من ضاق قلبه اتسع لسانه.

وأنشد بعض أهل العلم :

لا تُكْثِرِ الشَّكْوَى إِلَى صَدِيقٍ ... وَارْجِعْ إِلَى الْخَالِقِ لا الْمَخْلُوقِ
لا يُخْرِجُ الْغَرِيقُ بِالْغَرِيقِ

وقال بعضهم :

لاَ تَشْكُ دَهْرَكَ مَا صَحَحْتَ بِهِ ... إِنَّ الْغِنَى هُوَ صِحَّةُ الْجِسْمِ
هَبْكَ الخَلِيفَةَ كُنْتَ مُنْتَفِعًا ... بِغَضَارَةِ الدُّنْيَا مَعَ السَّقَمِ

ومنها اليأس من جبر مصابه ، ودرك طلابه ، فيقترن بحزن الحادثة، قنوط الإياس فلا يبقى معها صبر، ولا يتسع لهما صدر.

وقال ابن الرومي :

اصْبِرِي أَيَّتُهَا النَّفْـ ... ـسُ فَإِنَّ الصَّبْرَ احْجَى

(١) سورة المعارج الآية (٥).

رُبَّمَا خَابَ رَجَاءٌ وَأَتَى مَا لَيْسَ يُرْجَى

وقال بعضهم :

أَتَحْسَبُ أَنَّ الْبُؤْسَ لِلْحُرِّ دَائِمٌ وَلَوْ دَامَ شيءٌ عَدَّهُ النَّاسُ فِي الْعَجَبْ
لَقَدْ عَرَّفَتْكَ الحَادِثَاتُ بُؤْسَهَا وَقَدْ أَدَّبَتْ إِنْ كَانَ يَنْفَعُكَ الأَدَبْ
وَلَوْ طَلَبَ الإِنْسَانُ مِنْ صَرْفِ دَهْرِهِ دَوَامَ الَّذِي يَخْشَى لأَعْيَاهُ مَا طَلَبْ

ومنها أن يغري بملاحظة من حيطَتْ سلامته ، وحرست نعمته حتى التحف بالأمن والدعة ، واستمتع بالثروة والسعة ، ويرى أنه قد خص من بينهم بالرزية بعد أن كان مساويًا ، وأفرد بالحادثة بعد أن كان مكافيًا ، فلا يستطيع صبرًا على بلوى ، ولا يلزم شكرًا على نُعْمَى ، ولو قابل بهذه النظرة ملاحظة من شاركه في الرزية، وساواه في الحادثة لتكافأ الأمران فهان عليه الصبر ، وحان منه الفرج.

قال : وأنشدت لامرأة من العرب :

أَيُّهَا الإِنْسَانُ صَبْرًا إِنَّ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا
كَمْ رَأَيْنَا الْيَوْمَ حُرّاً لَمْ يَكُنْ بِالأَمْسِ حُرّاً
مَلَكَ التِّبْرَ فَأَضْحَى مَالِكًا خَيْرًا وَشَرّاً
اشْرِبَ الصَّبْرُ وَإِنْ كَا نَ مِنَ الصَّبْرِ أَمَرًا

قال وأنشدت لبعض أهل الأدب :

يُرَاعُ الْفَتَى لِلْخَطْبِ تَبْدُو صُدُورُهُ فَيَيْأَسُ وَفِي عُقْبَاهُ يَأْتِي سُرُورُهُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّيْلَ لَمَّا تَرَاكَمَتْ دُجَاهُ بَدَا وَجْهُ الصَّبَاحِ وَنُورُهُ
فَلا تَصْحَبَنَّ الْيَأْسَ إِنْ كُنْتَ عَالِمًا لَبِيبًا فَإِنَّ الدَّهْرَ شَتَّى أُمُورُهُ

اهـ[١] ملخصًا

---

(١) أدب الدنيا والدين ٢٧١ .

ولما كان الجزع والهلع فطرة في الإنسان بها خلق وعليها جُبِلَ ، فقد أرشدنا الله إلى طريق التخلص منها بقوله : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ. وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ. فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ. وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[1].

فمن اتصف بهذه الصفات التسع فقد أخذ بأسباب التخلص من الجزع والهلع وهذه الصفات هي :

أولاً : الخشوع في الصلاة : وهو معنى قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ قاله عقبة بن عامر . قال ابن كثير ومنه الماء الدائم وهو الساكن الراكد[2].

ثانيًا : أداء الزكاة المفروضة سامحة بها أنفسهم.

ثالثًا : التصديق الجازم بيوم القيامة ، ذلك التصديق الدافع إلى العمل الصالح.

رابعًا : الخوف والإشفاق من عذاب الله خوفًا يبعد صاحبه عن كل ما يغضب الله وكل ما يوجب عذابه وعقابه.

خامسًا : حفظ الفروج عن المحرمات.

سادسًا : حفظ الأمانات وأداؤها تامة غير منقوصة.

سابعًا : الوفاء بالعهد وعدم الغدر فيه.

ثامنًا : أداء الشهادات دون زيادة عليها أو نقصان منها أو كتمانها.

تاسعًا : المحافظة على الصلاة : مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها.

---

(١) سورة المعارج الآية (١٩ - ٣٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٢١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «شر ما في الرجل: شح هالع وجبن خالع»[١] رواه الإمام أحمد وأبو داود بسند حسن.

فإن تخلص الإنسان من الجزع والهلع فتح على نفسه باب الصبر والفرج، ولذلك قال النبي ﷺ : «الصبر ضياء»[٢] . أي يضيء للإنسان في ظلمات الحيرة ليرى الفرج قد اقترب والمحنة قد انكشفت والغمة قد انجلت.

والصبر أنواع :

فالأول : صبر على المصائب والبلايا سواء كانت في الجسد أو في الأهل والولد أو في المال أو غير ذلك.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال[٣]: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيه[٤] من أهل الدنيا ثم احتسبه[٥] إلا الجنة» رواه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر ، عوضته منهما الجنة» يريد عينيه رواه البخاري[٦].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال[٧]: «ما يصيب المسلم من نصب[٨] ولا وصب[٩] ولا هم ولا حزن ولا أذىً ولا غم، حتى الشوكة

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود (٣/ ١٢) بسند جيد.

(٢) رواه مسلم (٣/ ١٠١ نووي).

(٣) رواه البخاري (١١/ ٢٤٢ فتح).

(٤) صفيه : حبيبه.

(٥) أي صبر وسلم بقضاء الله وادخر ثواب صبره عند الله.

(٦) رواه البخاري (١٠ / ١١٦ فتح)، والترمذي (٤/ ٢٨).

(٧) رواه البخاري (١٠/ ١٠٣ فتح) ، ومسلم (١٦ / ١٣٠ بشرح النووي).

(٨) نصب : تعب.

(٩) وصب : مرض.

obeikandl.com

يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه» متفق عليه.

ولكن هذا الأجر والثواب إنما يكون للصابرين دون غيرهم وبهذا يعلم أن البلاء من الله خير ومنة ، فقد قال رسول[١] الله ﷺ : «من يرد الله به خيراً يُصب منه» رواه البخاري.

وقال أيضا : «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[٣].

والثاني : الصبر على امتثال ما أمر الله تعالى به ؛ لأن الطاعات تحتاج إلى صبر في تأديتها وصبر في مجاهدة الشيطان والهوى كما قال النبي ﷺ : «المهاجر من هجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه»[٤].

وقال النبي ﷺ : «حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره»[٥] رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

الثالث : صبر عن الشهوات والمعاصي ، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[٦]. والنبي ﷺ يقول : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم والترمذي وقال: حسن صحيح[٧].

---

(١) رواه البخاري (١٠ / ١٠٣ فتح).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٢٧) وقال: حسن غريب.

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٢٨) وقال : حسن صحيح.

(٤) تخريج الإحياء (٨٥ / ٢) قال الحافظ العراقي : رواه ابن ماجه والنسائي بإسنادين جيدين.

(٥) رواه البخاري (١١ / ٣٢٠ فتح) ، ومسلم (١٧ / ١٦٥ بشرح النووي).

(٦) سورة النازعات الآية ٤٠ - ٤١.

(٧) رواه مسلم ، والترمذي (٣/ ٣٨٥).

فالشيطان يزين للإنسان المعاصي ويحببها إلى قلبه ويقربه ويدنيه منها لكي يوقعه فيها فالمرأة مثلاً إذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان فيزينها في عيون الناظرين ويحسنها في قلوبهم، فإذا صبر المسلم وغض بصره لم يستطع الشيطان أن ينفذ إلى قلبه.

الرابع : الصبر على الأذى في سبيل الله ، لأن المؤمن المتمسك بدينه الملتزم بأوامر ربه، المقتدي بنبيه ظاهراً وباطنًا لابد أن يناله الأذي ، ويصيبه المكروه ويعاديه أهل الباطل ويخطط له ويدبر أهل الشر والفساد ﴿**الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ وهذا واقع أهل الحق اليوم: المعاداة من القريب والبعيد والرؤساء والشعوب، فعلماء السوء يرمونهم بالتطرف ، والعلمانيون يرمونهم بالتخلف والرجعية ، والعامة يرمونهم بالتعصب والتزمت.

ولعل هذا يرجع إلى أن الحقَّ لا يُمَاشِي هواهم أو لأنهم لم يفهموا ما عليه أهل الحق فهمًا جيدًا ولذلك نقدم هذه القصيدة لشاب من شباب الدعوة في الدفاع عن أهل الحق مع بيان منهاجهم وطريقتهم :

اللهُ أَكْبَرُ فِي الدِّفَاعِ سَأَبْتَدِي ... وَهْوَ المُعِينُ عَلَى نَجَاحِ المَقْصِدِ
وَهْوَ الَّذِي نَصَرَ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ... وَسَيَنْصُرُ المُتَتَبِّعِينَ لأَحْمَدِ
وَبِهِ أَصُولُ عَلَى جَمِيعِ خُصُومِنَا ... وَأَعُدُّهُ عَوْنًا عَلَى مَنْ يَعْتَدِي
سَأُرْسِلُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَةِ وَحْيِهِ ... وَبِهِ أَشُدُّ عَلَى كَتَائِبَ حُسَّدِي
وَبِهِ سَأَجْدَعُ أَنْفَ كُلِّ مُكَابِرٍ ... وَبِهِ سَأَرْصُدُ لِلْكَفُورِ المُلْحِدِ
وَسَأَسْتَجِيرُ بِذِي الجَلاَلِ وَذِي العُلاَ ... لا لَنْ أُضَامَ إِذَا اسْتَجَرْتُ بِسَيِّدِي
وَسَأَسْتَمِدُّ العَوْنَ مِنْهُ عَلَى الَّذِي ... لَمَزَ الأَحِبَّةَ بِالْكَلاَمِ المُفْسِدِ
حَتَّى أُشَتِّتَ شَمْلَهُمْ بِأَدِلَّةٍ مِثْلِ ... الصَّوَاعِقِ فِي السَّحَابِ الأَسْوَدِ
وَبِنُورِ وَحْيِ اللهِ أَكْشِفُ جَهْلَهُمْ ... حَتَّى يَبِينَ عَلَى رُءُوسِ المَشْهَدِ
لاَ تَلْمِزُونَا يَا خَفَافِيشَ الدَّجَى ... بِتَطَرُّفٍ وَتَسَرُّعٍ وَتَشَدُّدِ
لا تَقْذِفُونَا بِالشُّذُوذِ فَإِنَّنَا ... سِرْنَا عَلَى نَهْجِ الخَلِيلِ مُحَمَّدِ
وَلِكُلِّ قَوْلٍ نَسْتَدِلُّ بِآيَةٍ ... أَوْ بِالْحَدِيثِ المُسْتَقِيمِ المُسْنَدِ

وَالنَّسْخَ نَعْرِفُ وَالعُمُومَ وَإِنَّنَا ... مُتَفَطِّنُونَ لِمُطْلَقٍ وَمُقَيَّدِ
وَنُصُوصُ وَحْيِ اللهِ نُتْقِنُ فَهْمَهَا ... لا تَحْسَبُونَ الْفَهْمَ كَالرَّأْيِ الرَّدِي
وَإِذَا تَعَارَضَتِ النُّصُوصُ فَإِنَّنَا ... بِأُصُولِ سَادَتِنَا الأَئِمةِ نَهْتَدِي
وَنُحَارِبُ التَّقْلِيدَ طُولَ زَمَانِنَا ... مَعَ حُبِّنَا لِلْعَالِمِ المُتَجَرِّدِ
وَكَذَا الأَئِمَّةُ حُبُّهُم مُتَمَكِّنٌ ... مِنْ كُلِّ نَفْسٍ يَا بَرِيَّةُ فَاشْهَدِي
وَتَرَقُّ أَنْفُسُنَا لِرُؤيَةِ مَنْ غَدَا ... فِي رِبْقَةِ التَّقْلِيدِ شِبْهَ مُقَيَّدِ
إِنَّا نَرَى التَّقْلِيدَ دَاءً قَاتِلا ... حَجَبَ العُقُولَ عَنِ الطَّرِيقِ الأَرْشَدِ
جَعَلَ الطَّرِيقَ عَلَى المقلِّد حَالِكًا ... فَتَرَى المقَلِّدَ تَائِهًا لا يَهْتَدِي
فَلِذَا بَدَأْنَا فِي اجْتِثَاثِ جُذُورِهِ ... مِنْ كُلِّ قَلْبٍ خَائِفٍ مُتَرَدِّدِ
وَلَسَوْفَ نَدْمِلُ دَاءَهُ وَجِرَاحَهُ ... بِمَرَاهِمِ الْوَحْيِ الشَّرِيفِ المُرْشِدِ
نَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ طُولَ حَيَاتِنَا ... فِي كُلِّ حِينٍ فِي الخَفَا وَالمَشْهَدِ
وَنُحَارِبُ الشِّرْكَ الخَبِيثَ وَأَهْلَهُ ... حَرْبًا ضَرُوسًا بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
وَكَذَلِكَ البِدَعَ الخَبِيثَةَ كُلَّهَا ... نَقْضِي عَلَيْهَا دُونَ بَابِ المَسْجِدِ
هَذِي طَرِيقَتُنَا وَهَذَا نَهْجُنَا ... فَعَلامَ أَنْتُمْ دُونَنَا بِالمَرْصَدِ؟
لِمَ تَطْعَنُونَا وَتَلْمِزُونَا كَأَنَّنَا ... جِئْنَا بِرَأْيٍ لِلعَقِيدَةِ مُفْسِدِ؟
أَلمَذْهَبِ وَلِعَادَةٍ وَحُكُومَةٍ ... تَتَهَرَّبُونَ مِنَ الحَدِيثِ الجَيِّدِ؟
هَذَا الحَدِيثُ تَلألأتْ أَنْوَارُهُ ... رَغْمَ الجُهُولِ وَرَغْمَ كُلِّ مُقَلِّدِ
إِنْ كُنْتُمُ تَتَضَرَّرُونَ بِنُورِهِ ... فَالشَّمْسُ تَطْلُعُ رَغْمَ أَنْفِ الأَرْمَدِ
بِاللهِ قُولُوا مَا الَّذِي أَنْكَرْتُمُو ... عَلَّ البَرِيَّةَ لِلحَقِيقَةِ تَهْتَدِي؟
هَدَّدْتُمُونَا بِالمَذَاهِبِ بَعْدَمَا ... وُضِعَ الدَّلِيلُ فَبِئْسَ مَنْ مُتَهَدِّدِ
وَبَهَتُمُونَا بِالقَبَائِحِ كُلِّهَا ... وَعَرَضْتُمُونَا بِالقِنَاعِ الأَسْوَدِ
وَرَفَعْتُمُونَا لِلولاةِ تَشَفِّيًا ... وَفَرِحْتُمُو بِتَهَدُّدٍ وَتَوَعُّدِ
لَكِنَّنَا لُذْنَا بِبَابِ إِلَهِنَا ... فَأَرَاحَنَا مِنْ كُلِّ خَصْمٍ مُعْتَدِي
وَجَلَا الحَقِيقَةَ لِلْمَلا فَخَسِئْتُمُو ... وَالسُّوءُ يَظْهَرُ مِنْ خَبِيثِ المَقْصِدِ
يَا مَعْشَرَ الإِخْوَانِ سِيرُوا وَأَبْشِرُوا ... وَثِقُوا بِنَصْرِ الْوَاحِدِ المُتَفَرِّدِ

obeikandi.com

سِيرُوا عَلَى نَهْجِ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ ... لا تَعْبَئُوا بِالآثِمِ المتَمَرِّدِ
وَلْتُعْلِنُوهَا لِلْبَرِيَّةِ كُلِّهَا ... إِنَّا بِغَيْرِ مُحَمَّدٍ لا نَقْتَدِي
لا نَطْلُبُ الدُّنْيَا وَلا نَسْعَى لَهَا ... اللهُ مَقْصِدُنَا وَنِعْمَ المَقْصِدِ
لَيْسَ المَنَاصِبُ هَمَّنَا وَمُرَادَنَا ... كَلا وَلا ثَوْبَ الخَدِيعَةِ نَرْتَدِي
إِنَّا لَنَسْعَى فِي صَلاحِ نُفُوسِنَا ... بِعِلاجِ أَنْفُسِنَا المرِيضَةِ نَبْتَدِي
وَنُحِبُّ أَنْ نَهْدِي البَرِيَّةَ كُلَّهَا ... نَدْعُو القَرِيبَ قُبَيْلَ نُصْحِ الأَبْعَدِ
وَبِوَاجِبِ المعْرُوفِ نَأْمُرُ قَوْمَنَا ... وَنَقُومُ صَفًّا فِي طَرِيقِ المُفْسِدِ
لَوْ تُبْصِرُوا الإِخْوَانَ فِي حَلْقَاتِنَا ... مِنْ عَالِمٍ أَوْ طَالِبٍ مُسْتَرْشِدِ
لَرَأَيْتَ عِلْمًا واتِّبَاعًا صَادِقًا ... لِلسُّنَّةِ الغَرَّاءِ دُونَ تَرَدُّدِ
أَنْعِمْ بِطُلابِ الحَدِيثِ وَأَهْلِهِ ... وَأَجِلَّهُمْ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ مُفَنَّدِ
هُمْ زِينَةُ الدُّنْيَا مَصَابِيحُ الْهُدَى ... طَلَعُوا عَلَى الدُّنْيَا طُلُوعَ الفَرْقَدِ
وَرِثُوا النَّبِيَّ وَأَحْسَنُوا فِي إِرْثِهِ ... وَحَمَوْهُ مِنْ كَيْدِ الخَبِيثِ المعْتَدِي
سَعِدُوا بِهَدْيِ مُحَمَّدٍ وَكَلامِهِ ... وَسِوَاهُمُو بِكَلامِهِ لَمْ يَسْعَدِ
وَالدِّينُ قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... وَهُمُو لِدِينِ اللهِ أَفْضَلُ مُرْشِدِ
وَالفِقْهُ فَهْمُ النَّصِّ فَهْمًا وَاضِحًا ... مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَتَأْوِيلٍ رَدِي
لاَ تَحْسَبَنَّ الْفِقْهَ مَتْنًا خَالِيًا ... مِنْ كُلِّ قَوْلٍ لِلْمُشَرِّعِ مُسْنَدِ،
أَوْ قَالَ عَالِمُنَا وَقَالَ إِمَامُنَا ... أَوْ ذَاكَ مَذْهَبُ أَحْمَدٍ وَمُحَمَّدِ
هَذَا كَلامٌ لَيْسَ فِيهِ هِدَايَةٌ ... مَنْ سَارَ فِي تَحْصِيلِهِ لاَ يَهْتَدِي
فَعَلَيْكَ بِالْوَحْيَيْنِ لاَ تَعْدُوهُمَا ... وَاسْلُكْ طَرِيقَهُمَا بِفَهْمٍ جَيِّدِ
فَإِذَا تَعَذَّرَ فَهْمُ نَصٍّ غَامِضٍ ... فَاسْتَفْتِ أَهْلَ الذِّكْرِ كَالْمُسْتَرْشِدِ
بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُورِ فَإِنَّهُ ... مِنْ أَمْرِ رَبِّكَ فِي الْكِتَابِ فَجَوِّدِ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ مَنْ اقْتَدَى بِمُحَمَّدٍ ... سَيَنَالُهُ كَيْدُ الغُوَاةِ الحُسَّدِ
وَيَذُوقُ أَنْوَاعَ العَدَاوَةِ وَالأَذَى ... مِنْ جَاهِلٍ وَمُكَابِرٍ وَمُقَلِّدِ
فَاصْبِرْ عَلَيْهِ وَكُنْ بِرَبِّكَ وَاثِقًا ... هَذَا الطَّرِيقُ إِلَى الْهُدَى وَالسُّؤْدُدِ

obeikandl.com

أحوال الصبر :

للصبر مع الهوى ثلاث أحوال:

الأولى : أن يقهر الصبر الهوى ويذلّه فيصير الصبر دأبا للإنسان وعادة له، فلا يعتريه جزع ولا ينازعه هوى وهذه المرتبة لا يصلها إلا الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا[١].

الثانية : أن يتغلب الهوى على الصبر حتى لا تجد للصبر مكانًا في قلب الإنسان ، فقد أصبح أسير الهوى والشهوة وهؤلاء هم الأكثرون في زماننا هذا.

الثالثة : أن تكون الحرب سِجَالاً بين الجندين ، فتارة تجده صابرًا محتسبًا وتارة تجده جازعًا هلعًا.

١٢ - اتباع الهوى :

إن الله تبارك وتعالى عندما ركَّب الهوى في الإنسان خلق له عقلاً؛ ليكون عليه أميرًا وله قائدًا.

قال بعض الشعراء :

يَا عَاقِلاً أَرْدَى الْهَوَى عَقْلَهُ ... مَالَكَ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْكَ الأُمُورُ

أَتَجْعَلُ الْعَقْلَ أَسِيرَ الْهَوَى ... وَإِنَّمَا الْعَقْلُ عَلَيْهِ أَمِيرُ

قال أبو الحسن الماوردي : وأما الهوى فهو عن الخير صاد، وللعقل مضاد؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومدخل الشر مسلوكًا . ا هـ[٢].

وقال أيضًا : ولما كان الهوى غالبًا وإلى سبيل المهالك موردًا ، جعل العقل عليه رقيبًا مجاهدًا ، يلاحظ عثرة غفلته ، ويدفع بادرة سطوته، ويدفع خداع حيلته؛ لأن سلطان الهوى قوي ، ومدخل مكره خفي . ا. هـ[٣].

(١) اقتباس من سورة الأحقاف الآية (١٣).

(٢) أدب الدنيا والدين (١٣ - ١٦).

(٣) أدب الدنيا والدين (١٣ - ١٦).

obeikandl.com

وقال بعض العلماء : ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب ابن آدم من كليهما، فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته على عقله فهو شر من البهائم[١].

والمثل العربي يقول : العقل وزير ناصح ، والهوى وكيل فاضح.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعًا لهواه، فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح[٢].

فالعاقل من يحكم عقله في هواه ، وأعقل منه من يحكم الشرع في عقله وهواه، فعلى منهاج الشرع يسير، وبنوره يستضيء.

ولقد بين الله عز وجل أن اتباع الهوى هو طريق الضلال والانحراف ، والشقاوة والإجحاف فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[٣].

وروي أن إبليس قال : أهلكتهم بالذنوب ، فأهلكوني بالاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، فهم يحسبون أنهم مهتدون، فلا يستغفرون.

وعن أبي برزة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إنما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم ، وفروجكم ، ومضلات الهوى»[٤].

وقال بعض الحكماء : العقل صديق مقطوع ، والهوى عدو متبوع.

قال ابن عباس رضي الله عنه : ما ذكر الله عز وجل هوًى في القرآن إلا ذمه، ﴿واتَّبعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿وَاتَّبعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[٦]،

(١) أدب الدنيا والدين (١٣ - ١٦).

(٢) القرطبي (٦/ ١٦٨).

(٣) سورة ص الآية ٢٦.

(٤) الترغيب (١ / ٦٤) قال المنذري : رواه أحمد والبزار والطبراني في معاجمه الثلاثة وبعض أسانيدهم رواته ثقات وصححه الألباني في الترغيب والترهيب (١/ ٢٥).

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٦.

(٦) سورة الكهف الآية ٢٨.

وقال تعالى : ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَن أَضَلَّ اللهُ﴾[١] وقال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللهِ﴾[٢] ، وقال تعالى: ﴿وَلَاتَتبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾[٣].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : أنتم في زمان يقود الحقُّ الهوى ، وسيأتي زمان يقود الهوى الحقَّ[٤].

قال ابن السماك : كن لهواك مسوفًا ولعقلك مسعفًا ، وانظر ما تسوء عاقبته فوطن نفسك على مجانبته ، فإن ترك النفس وما تهوى دواؤها فاصبر على الدواء كما تخاف من الداء.

وقال الشاعر :

صَبَرْتُ عَلَى الأَيَّامِ حَتَّى تَولَّتِ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَدَّتِ
وَمَا النَّفْسُ إِلا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى ... فَإِنْ أُطْعِمَتْ تَاقَتْ وَإِلا تَسَلَّتِ[٥]

وللهوى مع العقل ثلاثة أحوال :

الأولى : أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه ، حتى تستولي عليه غلبة الهوى والشهوات ، فيكَلُّ[٦] العقل عن دفعها ، ويضعف عن منعها، مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها، وهذا يكون في الأحداث أكثر، وعلى الشباب أغلب ، لقوة شهواتهم وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم.

وصاحب هذه الحالة أسير الهوى فلا يفكر إلا بهواه ولا يعادي إلا من أجله ولا يصادق إلا من أجله ولا يجتهد إلا لنيله. وربما ذله الهوى واتخذه عبدًا ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ

(١) سورة الروم الآية ٢٩.
(٢) سورة القصص الآية ٥٠.
(٣) القرطبي (١٦ / ١٦٧).
(٤) القرطبي (١٩ / ٢٨٠).
(٥) أدب الدنيا والدين ـ١٥.
(٦) الكل : الثقل ، قال تعالى ﴿وهو كَلٌّ على مولاه﴾.

اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[١].

ومن تحكم فيه هواه قاده إلى الذل والهوان ، والخيبة والخسران.

وقد قيل :

إِذَا أَنْتَ لم تعص الْـهَوَى قادك الْهَوَى ... إِلـى كُلِّ مَـا فِيـهِ عَـلَيْـكَ مَقَـالُ

قال القرطبي : «قال الأصمعي : سمعت رجلاً يقول :

إِنَّ الهَوَانَ هُـوَ الْهَوَى قُلِـبَ اسْمُهُ ... فَإِذَا هَـوَيْتَ فَـقَدْ لَـقِيـتَ هَوَانـا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هوان سرقت نونه ، فأخذه شاعر فنظمه فقال :

نُونُ الـهَوَانِ مِنَ الْـهَوَى مَسْـرُوقَةٌ ... فَإِذَا هَـوَيْتَ فَـقَدْ لَـقِيـتَ هَوَانـا

وقال آخر:

إِنَّ الْـهَوَى لَـهْوَ الْـهَـوانُ بِعَـيْنِـه ... فَإِذَا هَـوَيْتَ فَـقَدْ كَـسَبْـتَ هَوَانـا

وَإِذَا هَوَيْـتَ فَقَـدْ تَعَـبَّدَكَ الْـهَوَى ... فَاخْـضَعْ لِحُـبِّكَ كَـائِنًـا مَنْ كَـانا

ولعبد الله بن المبارك :

وَمِـنَ الْـبَـلاَيَـا لِلْـبَـلاَءِ عَـلاَمَـةٌ ... أَلاَّ يُـرَى لَـكَ عَـنْ هَـوَاكَ نُـزُوعُ

الْعَـبْدُ عَبْـدُ النَّفْسِ فِـي شَهَوَاتِـهَا ... وَالْـحُـرُّ يَـشْـبَـعُ تَـارَةً وَيَـجُـوعُ

ولابن دريد :

إِذَا طَالَـبَتْك الـنَّفْسُ يَـوْمًا بِشَـهْوَةٍ ... وَكَـانَ إِلَـيْهَـا لِـلْـخِلاَفِ طَـرِيـقْ

فَدَعْـهَا وَخَالِفْ مَـا هَوَيْتَ فَإِنَّـمَا ... هَـوَاكَ عَـدُوٌّ وَالْخِـلاَفُ صَـدِيـقْ

ولأبي عبيد الطوسي :

وَالـنَّفْـسُ إِنْ أَعْـطَيْـتَهَـا مُـنَاهَـا ... فَـاغِـرَةٌ نَـحْـوَ هَـوَاهَـا فَـاهَـا

وقال سهـل بن عبد الله التستري : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك ا. هـ[٢] ملخصًا.

---

(١) سورة الفرقان الآية ٤٣.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ١٦٨.

وقال أيضًا :

إِذَا الْمَرْءُ أَعْطَى نَفْسَهُ كُلَّ مَا اشْتَهَتْ وَلَمْ يَنْهَهَا تَاقَتْ إِلى كُلِّ بَاطِلِ
وَسَاقَتْ إِلَيْهِ الإِثْمَ وَالْعَارَ بِالَّذِي دَعَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلاَوَةِ عَاجِلِ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم ، وآجلها وخيم ، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فَسَوِّفْهَا بالتأميل والإرغاب ، فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعتا على النفس ذلت لهما وانقادت[1].

والهوى إذا تغلب على العقل أسكره، فلا يستطيع أن يميز بين الحق والباطل، وربما زاد تأثيره عليه حتى يقلب عنده الموازين، فيرى الحق باطلاً والباطل حقّاً. فنعوذ بالله من الخذلان.

الحالة الثانية : أن تكون الحرب بينهما سجالاً ، فمرة يجتذبه الهوى ومرة يعود إلى رشده. فعلى صاحب هذه الحالة أن يكثر من أصدقاء الخير الذين يذكرونه إذا نسي ، وينبهونه إذا غفل، ويرشدونه إذا جهل ، وينشطونه إذا كسل ، ويقوونه إذا ضعف ، ويأخذون بيده إلى الطريق المستقيم ، وعليه أيضًا أن يلبس درع الحرب، ويشد عليه سلاحه وينزل ميدان النفس؛ ليجاهد جند الهوى.

قال الحسن البصري رحمه الله : أفضل الجهاد : جهاد الهوى ، وقال المصطفى ﷺ : «المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه»[2].

وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس وأحراهم بالظفر في مجاهدته؟ قال : من جاهد الهوى طاعة لربه، واحترس في مجاهدته من ورود خواطر الهوى على قلبه.

وقال بعضهم : خير الناس من أخرج الشهوة من قلبه ، وعصى هواه في طاعة ربه. وعليه أن يستميت في الجهاد؛ لأن الغنيمة ثمينة «ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة»[3].

---

(١) أدب الدنيا والدين ١٥، ١٦.

(٢) قال العراقي: رواه ابن ماجه والنسائي بسندين جيدين.

(٣) رواه الترمذي وحسنه .

وعليه أن يصبر وإن طال الجهاد فحري بالمجاهد أن ينتصر، وبالصابر أن يفوز، وبالراغب أن ينال.

وعليه أن يستعين بالله على نفسه وهواه ؛ لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله وعليه أن يدعو بدعاء إمام المجاهدين ﷺ[١]: «نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»[٢] وقوله : «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها» رواه أحمد ومسلم عن زيد بن أرقم[٣].

الحالة الثالثة : أن يتغلب على الهوى فيكبته ويقهره ، ويكبح جماحه، ويوجهه نحو الشرع فبه يستضيء ، وعلى طريقه يسير، وبرسوله يقتدي وهؤلاء هم المستقيمون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، الذين تمثلوا قول النبي ﷺ : «قل آمنت بالله ثم استقم»[٤] وهم المقصودون بقول الله تعالى : ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾[٥].

يقول سيد قطب رحمه الله : «والذي يخاف مقام ربه لا يقدم على معصية، فإذا أقدم عليها بحكم ضعفه البشري ، قاده خوف هذا المقام إلى الندم والاستغفار والتوبة فظل في دائرة الطاعة.

ونهي النفس عن الهوى هو نقطة الارتكاز في دائرة الطاعة، فالهوى هو الدافع القوي لكل طغيان ، وكل تجاوز ، وكل معصية ، وهو أساس البلوى وينبوع الشر، وقَلَّ أن يؤتى إنسان إلا من قِبَلِ الهوى، فالجهل سهل علاجه ، ولكن الهوى بعد العلم هو آفة النفس التي تحتاج إلى جهاد شاق طويل الأمد لعلاجها.

والخوف من الله هو الحاجز الصُّلْبُ أمام دفعات الهوى العنيفة ، وقل أن يثبت غير

---

(١) رواه أبو داود (٢/ ٢٣٨) وابن ماجه (١/ ٦٠٩).

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه مسلم (١٧/ ٤١).

(٤) رواه مسلم .

(٥) سورة النازعات الآية ٤٠ - ٤١.

هذا الحاجز أمام دفعات الـهوى ، ومن ثم يجمع بينهما السيـاق القرآني في آية واحدة فالذي يتحدث هنا هو خالق هذه النفس ، الـعليم بدائها، الخبير بدوائها ، وهو وحده الذي يعلم دروبها، ومنحنياتها، ويعلم أين تكمن أهواؤها وأدواؤها ، وكيف تطارد في مكامنها ومخابئها.

ولم يكلف الله الإنسان ألا يشتجر في نفسه الهوى، فهو سبحانه يعلم أن هذا خارج عن طاقتـه ، ولكنه كلفـه أن ينهاها ويكـبحها ويمسك بـزمامها، وأن يستـعين في هذا بالخوف ، الخوف من مقام ربه الجليل العظيم المهيب، وكتب له بهذا الجهاد الشاق الجنة مثابة ومأوى ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1] ذلك أن الله يعلم ضخامة هـذا الجهاد، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها ورفعها إلى المقام الأسنى.

إن الإنسان إنسان بهذا الـنهي ، وبهذا الجهاد ، وبهذا الارتفاع، وليـس إنسانًا يترك نفسه لهواها ، وإطاعة جواذبه إلى دركها ، بـحجة أن هذا مركب في طبيعته ، فالذي أودع نفسه الاسـتعداد لجيشان الـهوى، هو الذي أودعها الاسـتعداد للإمساك بـزمامه، ونهى النفس عنه ، ودفعها عن جاذبيتـه وجعل له الجنة مأوى حين ينتصر ، ويرتفع ، ويرقي ا هـ[2].

١٣ - سوء الظن :

إن سوء الظن من الفخـاخ التي يصطاد بها الشيطان قلـوب العباد ؛ لأن سوء الظن من عوامل تفكيـك الجماعات ، وإفساد العلاقات ، وتقطيـع أواصر المحبة، وفي هذا الجو المظلم يستطيـع الشيطان أن يعمل عمله ، وينفذ خطته ، فـيصطاد المسلمين واحدًا تلو الآخر؛ لأنهم تفرقوا ولم يجتمعوا ، وتفـككوا ولم يعتصـموا ، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنـه أن رسول الله ﷺ قال : «من أراد بحبوحة الجنة فلـيلزم الجماعة ، فـإن الشيطان مع الـواحد، وهو من الاثنين أبـعد» رواه أحمد

---

(١) سورة النازعات الآية ٤١.

(٢) الظلال (٦ / ٣٨١٩).

والترمذي وقال: حسن صحيح غريب[١].

ولذلك يجتهد الشيطان في التفريق بين الأحبة ، وتشتيت الصحبة، ولكن النبي الرحيم - صلوات الله وسلامه عليه - نبهنا إلى هذا المدخل الخبيث من مداخل اللعين فقال: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا» رواه البخاري واللفظ له، ومسلم وأبو داود والترمذي[٢].

قال الحافظ : قال القرطبي : المراد بالظن هنا التهمة التي لا سبب لها، كمن يتهم رجلاً بالفاحشة من غير أن يظهر عليه ما يقتضيها، ولذلك عطف عليه قوله «ولا تجسسوا»، وذلك أن الشخص يقع له خاطر التهمة، فيريد أن يتحقق فيتجسس ويبحث ويستمع؛ فنهي عن ذلك وهذا الحديث يوافق قول الله تعالى: ﴿**اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾[٣] فدل سياق الآية على الأمر بصون عرض المسلم غاية الصيانة؛ لتقدم النهي عن الخوض فيه بالظن، فإن قال الظان : أبحث لأتحقق قيل له: ﴿**ولا تجسسوا**﴾ فإن قال: تحققت من غير تجسس، قيل له : ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا**﴾ اهـ[٤].

قال القرطبي رحمه الله : الظن في الشريعة قسمان : محمود ومذموم، فالمحمود منه ما سلم معه دين الظان والمظنون به عند بلوغه، والمذموم ضده ، بدلالة قوله تعالى: ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ وقوله : ﴿**لَولا إِذْ سَمِعْتُمُوه ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا**﴾[٥].

قال : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها، أن كل ما لم تعرف له

---

(١) رواه أحمد ، والترمذي (٣/ ٣١٥) وصححه الألباني في ظلال الجنة (١/ ٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٠ / ٤٨١ فتح) ، ومسلم (١٦/ ١١٨ بشرح النووي).

(٣) سورة الحجرات الآية ١٢.

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٨١).

(٥) سورة النور الآية ١٢.

أمارة صحيحة، وسبب ظاهر كان حرامًا واجب الاجتناب، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر، فظن الفساد به والخيانة محرم، بخلاف من اشتهر بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث[١]. وعن النبي ﷺ قال: «إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه، وأن يظن به ظن السوء»[٢] ا هـ.

قال ابن كثير رحمة الله عليه : «وروينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً»[٣].

روى أبو داود بسند جيد عن زيد رضي الله عنه قال : أُتِيَ ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله رضي الله عنه: إنا نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به».

ولما كان ظن السوء مفسدًا للمجتمع المسلم فقد أمرنا الله باجتنابه فقال: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾[٤].

يقول سيد قطب رحمه الله : وتبدأ الآية بهذا النداء الحبيب ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ ثم تأمرهم باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا أنفسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر : ﴿**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**﴾ وما دام النهي منصبًا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم ، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلاً؛ لأنه لا يدري أي ظنون تكون إثمًا.

بهذا يُطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ فيقع في الإثم، ويدعه نقيًا ، بريئًا من الهواجس والشكوك ، أبيض يُكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء ، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك ، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق

---

(١) رواه ابن ماجه بنحوه وسنده ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٣٢).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢١٢).

(٤) الحجرات : (١٢).

والتوقع، وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون. اهـ[١].

والظن خواطر تقع في القلب ربما لا يستطيع الإنسان دفعها فيجب عليه أن يضعفها بظن الخير، فإن لم يستطع فعليه أن يتذكر عيوبه وخفايا ذنوبه؛ لينشغل بها عن عيوب الناس. فإن لم يستطع أن يدفع الظن السيئ بذلك فعليه أن لا يتكلم به أو يبحث عن تحقيقه، وبهذا يسلم من الإثم؛ لأن النبي ﷺ قال[٢]: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل، أو تتكلم» متفق عليه.

١٤ - احتقار المسلم:

إن احتقار المسلم والسخرية منه أعظم الذنوب عند الله تعالى، ولذلك يقول النبي ﷺ[٣]: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم». حتى وإن وقع من المسلم شيء خارج عن الآداب الاجتماعية - يجب أن يلتمس له الأعذار ففي صحيح[٤] البخاري: عن عبد الله بن زمعة قال: «نهى النبي ﷺ أن يضحك الرجل مما يخرج من الأنفس» يعني - الفساء والضراط - بدليل الرواية الأخرى للبخاري[٥] من حديث عبد الله بن زمعة أيضًا ثم وعظهم في الضرطة فقال: «لمَ يضحك أحدكم مما يخرج منه؟!».

فيجب أن يكون الاحترام والتقدير متبادلاً بين أفراد المجتمع المسلم ولذلك قال تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ، وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ**﴾[٦].

توجيهات إلهية لصلاح المجتمع المسلم وتنقيته من شوائب الشحناء والبغضاء لو

---

(١) الظلال (٦/ ٣٣٤٥).

(٢) رواه البخاري (٩/ ٣٨٨ فتح) ومسلم.

(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٢٠ بشرح النووي).

(٤) رواه البخاري (١٠/ ٤٦٣ فتح).

(٥) رواه البخاري (٨/ ٧٠٥ فتح).

(٦) سورة الحجرات الآية: ١١.

تمسك بها أفراده ؛ لانتشر الحب بينهم وغمرت السعادة قلوبهم.

يقول القرطبي : ينبغي ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رث الحال، أو ذا عاهة في بدنه ، أو غير لبق في محادثته ، فلعله أخلص ضميرًا وأنقى قلبًا ممن هو على ضد صفته، فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله ، والاستهزاء بمن عظمه الله. ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرحبيل : لو رأيت رجلاً يرضع عنزًا فضحكت منه ؛ لخشيت أن أصنع مثل الذي صنع. وعن عبد الله بن مسعود : البلاء موكل بالقول، ولو سخرت من كلب ؛ لخشيت أن أحول كلبًا ا هـ[1].

هذا من ناحية العيوب الخلقية ، أما من ناحية التفريط في أمر من أمور الدين فلا يوجب ذلك احتقاره والاستهزاء به والسخرية منه، ولكن تبغض عمله السيئ وتدعوه إلى الإقلاع عنه بالحكمة والموعظة الحسنة فقد قال النبي ﷺ : «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» رواه مسلم.

يقول القرطبي رحمه الله : وهذا حديث عظيم يترتب عليه أن لا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصح معه تلك الأعمال.

ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية ، يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه فالأعمال أمارات ظنيه ، لا أدلة قطعية. ويترتب عليه عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أعمالاً صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة ، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة ، فتدبر هذا فإنه نظر دقيق وبالله التوفيق اهـ[2].

وما قاله القرطبي - رحمه الله - في التفريق بين بغض الذنب وبغض المذنب دقيق

---

(١) تفسير القرطبي (١٦ / ٣٢٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٦/ ٣٢٧).

فعلاً ، قلما يتنبه إليه كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم ، ويؤيده[١] قول النبي ﷺ : «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» متفق عليه.

ولكن ربما استشكل فهم هذا الحديث على البعض ، والمعنى - والله أعلم - أن الرجل يظهر الأعمال الصالحة للناس وإن قلبه مليء بالرياء والنفاق، فالظاهر للناس أنه يعمل بعمل أهل الجنة، ولكن الله يعلم ما خفي عنهم من خبث باطنه؛ ولذلك يختم له بعمل سيئ ، والأعمال بالخواتيم!

وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار من الذنوب والمعاصي وغيرها ثم يتوب توبة صادقة خالصة ويبدأ مع الله عهداً جديداً مليئًا بالطاعات والقربات ، فيقبل الله توبته؛ لعلمه بإخلاص نيته، وصفاء قلبه، ويختم له بعمل صالح، والأعمال بالخواتيم.

ويؤيد ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي[٢] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة - فيما يبدو للناس - وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار - فيما يبدو للناس- وهو من أهل الجنة».

ويوضح هذا ما رواه مسلم والترمذي والنسائي[٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال هو جرىء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها؟ قال : تعلمت العلم وعلمته،

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٣٠٣ فتح) ، مسلم (١٦ / ١٩٢ بشرح النووي).

(٢) رواه البخاري (٦/ ٩٠ فتح) ، ومسلم.

(٣) رواه مسلم (١٣ / ٥٠ بشرح النووي) ، والترمذي (٤/ ٢٠)، والنسائي.

وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ، ولكنك تعلمت؛ ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به ، فعرفه نعمه ، فعرفها ، قال: فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار».

والمقصود أن الرجل لا يغتر بطاعته فيحتقر غيره من العاصين، فإنه لا يدري بماذا سيختم له ؟ والأعمال بالخواتيم.

١٥ - احتقار الذنوب :

ومن مداخل الشيطان أيضًا أنه يأتي للمسلم ويقول له : هذا ذنب صغير ، هذا هين، حتى يوقعه فيه ، فبالتهاون ارتكبت كثير من الذنوب، وانتهكت حرمات الله.

ولكن المسلم العاقل يحترز من الذنوب صغارها وكبارها؛ لأن اقتراف الصغيرة يجر إلى الكبيرة ، بل إن الصغائر إذا اجتمعت على الرجل أهلكته.

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنما مَثَلُ محقرات الذنوب كَمَثَلِ قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود ، وذا بعود ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » قال الحافظ : رواه أحمد بإسناد حسن[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر ، صقلت، فإن عاد زيد فيها، حتى تعلو قلبه، فهو الران الذي ذكره الله تعالى: ﴿**كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وابن ماجه[٢].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٢٩).

(٢) الترمذي (٥/ ١٠٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» قال الحافظ المنذري : رواه النسائي بإسناد صحيح[١].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «إني لأحسب الرجل ينسي العلم كما تَعلّمَهُ للخطيئة يعملها» أخرجه الطبراني.

بل إن التهاون بالذنوب من علامات ضعف الإيمان؛ لأن العبد كلما قوي إيمانه كلما زاد خوفه ، واشتد تحرزه من الذنوب ، ففي صحيح[٢] البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : «إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات». قال البخاري رحمه الله : يعني بذلك المهلكات[٣].

وقد قيل : لا تنظر إلى صغر المعصية ، ولكن انظر إلى عظم من عصيت. ولقد بلغ من شدة تحرز الصحابة - وهم أقوى هذه الأمة إيمانًا، وأتقاها قلوبًا - أنهم كانوا يخافون النفاق على أنفسهم.

قال البخاري : وقال ابن مليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه[٤].

فيجب على العبد الذي يريد النجاة أن لا يتهاون بالصغائر فقد قال النبي ﷺ[٥] لعائشة رضي الله عنها : «إياكِ ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالبًا» رواه النسائي وابن ماجه والدارمي وإسناده لا بأس به.

وأخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : «إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها ، وينسى المحقرات ، فيلقى الله وقد أحاطت به ، وإن

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٣٤).

(٢) رواه البخاري (١١/ ٣٢٩ فتح).

(٣) فتح الباري (١١ / ٣٢٩).

(٤) البخاري / كتاب الإيمان / باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

(٥) رواه النسائي ، والدارمي (٢/ ٣٠٣) ، وابن ماجه (٢/ ١٤١٧).

الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مشفقا حتى يلقى الله آمنا».

١٦ - الأمن من مكر الله :

من الناس من يقيم على المعاصي فإذا نصحته رد عليك بقوله: «الله غفور رحيم» ولقد نسي هذا المسكين أن عذابه هو العذاب الأليم فقد قال تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ**﴾(١) فالله غفور للتائبين ، رحيم بالمؤمنين ، ولكنَّ العاصين لهم عذاب أليم ، فلا تغتر أيها العبد برحمة الله ولا تأمن مكره ﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلا الْقَومُ الخَاسِرُونَ**﴾(٢).

ومكر الله استدراجه بالنعمة والصحة(٣).

والأمن من مكر الله يورث الغفلة ، والغفلة تورث التهاون ، وما أدراك ما التهاون؟ هو سلم الشيطان وسبب من أسباب الخسران، فمن تهاون في أمر من أوامر الله ، جره الشيطان إلى ما هو أكبر منه ، وهكذا حتى يوقعه في شباك المعاصي.

فلا بد للنفس من خوف يردعها عن المعاصي ويصدها عن المحارم، بل إن المؤمن كلما ازداد إيمانًا، ازداد خوفًا وشفقة على نفسه ولذلك حكى الله عز وجل عن المؤمنين في الجنة قولهم: ﴿**إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ، فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ**﴾(٤).

ولذلك يقول الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وَجِلٌ خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن(٥).

وعن أنس رضي الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط

---

(١) سورة الحِجْرِ الآية ٤٩ - ٥٠.

(٢) سورة الأعراف الآية ٩٩.

(٣) تفسير القرطبي (٧/ ٢٥٤).

(٤) سورة الطور الآية ٢٦ - ٢٧.

(٥) تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣٤).

فقال : «لو تعلمون ما أعلم ؛ لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً» رواه البخاري[١].

ويقول النبي ﷺ : «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة» رواه الترمذي وحسنه. يقول المنذري - رحمه الله : ومعنى الحديث : أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة ، والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفًا من القواطع والعلائق ا. هـ[٢].

وروى الحاكم عن بهز بن حكيم قال : أمَّنا زرارة بن أوفى رضي الله عنه في مسجد بني قشير ، فقرأ المدثر ، فلما بلغ : ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾[٣] خر ميتًا.

وكيف تأمن مكر الله وأمامُنا يوم تشيب فيه الولدان ، يوم نقف أمام الله حفاة عراة، فيسألنا عن كل كبيرة وصغيرة ، وكل حركة وسكنة، ولعمر الله إن الأمر عظيم، والخطب جليل.

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال[٤]: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لَرَجُلٌ توضع في أخمص[٥] قدميه جمرة يغلى منها دماغه» متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «يقول الله : يا آدم، فيقول : لبيك وسعديك، والخير في يديك ، قال: يقول: أخرج بعث النار . قال : وما بعث النار؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذاك حين يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد» فاشتد ذلك عليهم فقالوا : يا رسول الله : أينا ذلك الرجل ؟ قال:

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٣١٩ فتح).

(٢) الترغيب (٦/ ٧٩).

(٣) المدثر : ٨.

(٤) رواه البخاري (١١ / ٣١٩ فتح).

(٥) أي باطن قدميه الذي لا يصل إلى الأرض عند المشي.

«أبشروا ، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا ومنكم رجل» . ثم قال : «والذي نفسي في يده إني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة». قال : فحمدنا الله وكبرنا، ثم قال : «والذي نفسي في يده إني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة ، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود ، أو الرقمة في ذراع الحمار»[1].

١٧ - القنوط من رحمة الله :

فإذا لم يستطع الشيطان أن يدخل للعبد من باب الأمن من مكر الله شدد عليه الأمر حتى ييأس ويقنط من رحمة الله ، فيقول له : إن ذنوبك كثيرة وعظيمة لا يمكن أن تغفر ، ولا يمكن أن تدركك رحمة الله ، فيظل خلف العبد حتى يقنط فإذا قنط قال له: إذاً فتمتع من الدنيا بما تشاء قبل الموت ما دمت داخلاً النار لا محالة ، بهذه الطريقة يستدرج العبد حتى ينطلق في المعاصي والشهوات ليقضي نهمته منها.

فعلى العبد أن يسد هذا المدخل بتذكر رحمة الله التي وسعت كل شيء، فالله يقبل توبة الكافر إذا تاب وأسلم فكيف لا يقبل توبة المسلم الذي أذنب؟!.

وقد قيل :

يَا كَثِيرَ الذَّنْبِ : عَفْوُ اللهِ مِنْ ذَنْبِكَ أَكْبَر
ذَنْبُكَ أَعْظَمُ الأَشْيَاءِ فِي جَانِبِ عَفْوِ اللهِ تُغْفَر

وقد فتح الله باب التوبة لكل عباده وأطمعهم في رحمته فناداهم: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**[2].

يقول سيد قطب - رحمه الله : إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية كائنة ما كانت، وإنها الدعوة للأوبة، دعوة العصاة المسرفين ، الشاردين المبعدين في تيه الضلال، دعوتهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله ، إن الله رحيم بعباده. وهو يعلم ضعفهم وعجزهم. . . ويعلم العوامل المسلطة عليهم من داخل كيانهم، ومن خارجه،

(١) رواه البخاري (١١/ ٣٨٨) ، ومسلم (٣/ ٩٧ بشرح النووي).

(٢) سورة الزمر الآية ٥٣.

ويعلم أن الشيطان يقعد لهم كل مرصد ، ويأخذ عليهم كل طريق ، ويجلب عليهم بخيله ورجله، وإنه جاد كل الجد في عمله الخبيث ، ويعلم أن بناء هذا المخلوق الإنساني بناء واهٍ، وأنه مسكين سرعان ما يسقط ، إذا أفلت من يده الحبل الذي يربطه، والعروة التي تشده ، وأن ما ركب في كيانه من وظائف ومن ميول ومن شهوات سرعان ما ينحرف عن التوازن فيشط به هنا أو هناك ويوقعه في المعصية وهو ضعيف عن الاحتفاظ بالتوازن السليم.

يعلم الله سبحانه عن هذا المخلوق كل هذا فيمد له في العون، ويوسع له في الرحمة ، ولا يأخذه بمعصية حتى يهيئ له جميع الوسائل ليصلح خطأه ويقيم خطاه على الصراط.

وبعد أن يلج في المعصية ويسرف في الذنب ، ويحسب أنه قد طرد وانتهى أمره، ولم يعد يقبل ولا يستقبل ، في هذه اللحظة لحظة اليأس والقنوط يسمع نداء الرحمة ، الندي اللطيف :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١).

وإذا ما علمنا سبب نزول هذه الآية رأينا سعة رحمة الله للعالمين جميعًا.

يقول ابن عباس رضي الله عنه(٢): إن ناسًا من أهل الشرك قد قتلوا وأكثروا ، وزنوا وأكثروا ، فأتوا محمدًا ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل: **﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ، وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ، وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ، إِلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾**(٣) ونزل : **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾** الآية الزمر : ٥٣.

---

(١) الظلال (٥/ ٣٥٨)، والآية من سورة الزمر: رقم (٥٣).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٥٤٩ فتح الباري) ، مسلم (٢/ ١٣٩ بشرح النووي).

(٣) سورة الفرقان ٦٨ - ٧٠.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها» رواه مسلم(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن الله - عز وجل - يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» رواه الترمذي وقال: حسن غريب(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال(٣): «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟ فقال: لا ، فقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض؟ فدل على رجل عالم. فقال : إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . قالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقال ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي حكَمًا - فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»(٤).

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ٨٦ بشرح النووي).

(٢) الترمذي (٥/ ٢٥٧).

(٣) رواه البخاري ومسلم (١٣/ ٣٦ بشرح النووي).

(٤) رواه البخاري ، ومسلم (١٧/ ٨٤ بشرح النووي).

وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ، يا ابن آدم: لو بلغت ذنوبك عَنَان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ، يا ابن آدم: لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة» رواه الترمذي وقال: حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[1].

ويكفيك أن تعلم أن الله تعالى تاب على وَحْشِي قاتل حمزة عم النبي ﷺ[2] فهل بعد ذلك من يأس أو قنوط ؟! لا والله ولكنها حيلة من حيل الشيطان وشبكة من شباكه.

فلا تيأس وإن عظم ذنبك وكثرت معاصيك فإن عفو الله أعظم، ولكن تب وارجع إلى ربك وقل:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إِلا مُحْسِنٌ ... مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُو وَيَرْجُو الْمُجْرِمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلا الرَّجَا ... وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمُ

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٠٨).

(٢) انظر لباب النقول ١٨٥.

obeikandl.com